
كتاب الهلال
سلسلة ثقافية شهرية
أيام وليالى السندبا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL
العدد ٤٤١ - محرم ١٤٠٨ - سبتمبر ١٩٨٧
No . 441 - SEPTEMBER 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــة حسنـيـن



بقلم
ألفريد فرج

دار الهلال

مقدمة

في ألف ليلة وليلة تروى حكايات السندباد البحرى بضمير المتكلم .. ومع ذلك تخلو هذه الحكايات من الحديث عن حياته الشخصية ، عن حبه وعن أهله وعن مقامه بداره في بغداد وتجارته في السوق وعلاقاته فى المدينة !

وكان السندباد اذا صادف الاخطار والمهالك في البحر يعاهد الله والنفس انه اذا نجا وعاش وعاد الى بلاده لا يرجع الى السفر فى البحر ابدا ..

فاذا عاد واقام بداره لا يلبث أن يخون عهده ويعاود السفر في بحار الله وبلاد الله ..

فما الذى كان يعذبه ويضجره ويضنيه فى البر .. حتى تهون عليه اهوال البحر ؟!

هذه هى قصة السندباد كاملة .. فى البر والبحر ، أمام الحياة والموت ، الحب والهجر ، الوفاء والخيانة ، الثروة والفقر ، الحلم والحقيقة ، غرائب الطبيعة وغرائب المجتمع والناس .. ما حدثتنا به ألف ليلة ومالم تحدثنا عنه ألف ليلة .. ما أباحته لنا وما أخفته عنا وحجبته .

هذه أوراق السندباد كاملة وحياته الشخصية كما عرفتها من بين سطور ذكرياته .. ماعرفناه عنه ومالم نعرفه بعد .. الصفحات الباقية والصفحات التى كانت ضائعة !

أ . ف

الفصـــل الأول :

السرقة

انا الملاح العربى المغترب عبد الله بن شمـان الشهير باسم السندباد البحرى .

اروى لكم سيرة حياتى ..

وسيرتى هى حكاية اغترابى فى بحار الدنيا السبعة ، واغترابى فى بلادي وفى عقر دارى .

صادفت فى ايامى الغرائب والعجائب ، وسافرت فى البحار المجهولة .. ولكنى كنت اعجب ايضا من نفسى ومن الناس ، ومما تنطوى عليه النفوس من اغـــرب النوازع الخطرة .

تاجرت باللؤلؤ والجواهر الثمينة ، فما اكتسبت فى حياتى اثمن من معرفتى بنفسى وبالناس الاخرين .

ركبت الاهوال والاخطار ، وتعرضت للرخ والغـول والحيتان والمتوحشين .. فما عانيت أكثر ايلاما وافظع هولا من ظلم الانسان .

فى كل مرة واجهت الهلاك فى البحر اقسمت أن نجانى الله واعادنى سالما الى بلادى .. لا اعاود ركوب البحر مختارا ماحييت .

وفى كل مرة عدت الى دارى عانيت الملل والجحود والغدر وتقلب اهواء الناس .. فهربت الى البحــر من همى ومن عذابى ومن خوفى من غيرى ومن خوفى مـن نفسى .

ان سيرتى ليست حكاية عن الدنيا أرويها لكم من بعيد ، وانما هى حكاية عن نفسى وعن الناس الاخرين ..

***

لم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرى حين مات ابى ، وخلف لى مالا وضياعا وعقاراً ..

فلما وضعت يدى على الثروة عاشرت الخلان والصحاب وتجملت بالجواهر والثياب ، وعشت بقصري فى حارة الكرخ ببغداد حياة اللهو والبذخ ، واضأت ليلى بالمسرات واغرقت أيامى فى الملذآت .

ذات ليلة من تلك الليالى الصاخبة أحاط بى أصدقائى ورفاق انسى من زينة شباب العرب : على ابن شهبندر تجار بغداد ، والحسنى ابن شيخ السوق ، واسعد الحريره ومحمد الخيام واسماعيل البصرى ويونس الزجاج .. وكل منهم يزهو شبابا ونضارة وثراء ، كأنهم النجوم فى السماء .

وما اجتمعوا عندى ، ورافقوني فى سهراتى الا لما اشتهرت به أمسياتى من غناء وطرب ورقص ومرح وطعام وشراب .. ولحسن ضيافتي وصدق محبتى .

أجتمعنا تلك الليلة من ليالى الانس فى قاعة قصرى فأكلنا أطيب الطعام وشربنا أجود الخمر ، واخذت بألبابنا الحان العازفين وايقاعات الرقص ، وتسامت بنا النشوة الى أعلى سماء .. حتى ذهلنا وبهتنا وصار ضيوفى يتصايحون بغير حساب :

ـ ليس ازهى من امســـياتك فى بغداد كلهـا ياعبد الله ! ...

فقلت مكابرا :

ـ فما تقولون بعد استماعكم الغناء فى بيتى ؟

فتسابقوا الى الصياح :

ـ آه من الغناء في بيتك !.. هات وعجل !..

فتمايلت اعجابا بنفسى ، وصفقت بيـدى صـــفقة واحدة انشقت لها ستار القاعة ، واندفعت خلال الشـق جاريتى « حياة » .. وتوسطت القاعة وقد حفت بهـا الراقصات يتثنين على وتائر ايقاع العزف .. لترتقى سلمة « حياة » بصوتها القوى العذب ، واصوات العازفين من حولها تشد انطلاق صوتها المتدفق وهى تنشد :

ما كنت الا حلمـــا
رأته عينى فى الوسن
يا سـمح الفعـل ويا
أحسن من كل حسن

فما جهرت حياة بصوتها ، ورمت ذراعيها تريد بلوغ الغاية من لحنها .. حتى شق أصحابى الجيوب ورموا العمائم واطلقوا الاهات والصيحات :

ـ ليس فى بغداد كلها مثل هذا الغناء ! ... ولا مثل هذا الرقص !.. لله درك ياعبد الله !.. جعل الله ذنوبك كلها على ، أحاسب عنها بدلا منك فى يوم القيـامة !.. جعلنا الله مستحقين لمودتك وفضلك !.. أو نستحق ؟!

سمعت الصيحة الاخيرة بالسؤال فأخذتنى النخـوة

وصحت فوق صياحهم ، وبأجلى من العزف والغناء :

ـ نعم يا اصدقائى وندمائى واضيافى .. ولاثبت لكم صدق محبتى أهديتكم راقصاتى فليختر كل منكم لنفسه جارية وهى له .

فطاش صواب القوم ، واقتحموا الموآئد ونظام الرقص ووضع كل منهم يده على احدى الراقصات ، والراقصات يصرخن بدلال ويتكلفن الجزع ..

.. الا أسعد الحريرى لم يبرح مكانه ، وعينه ثابتة على مغنيتى « حياة » .

ـ والمغنية ؟

سألنى بلهفة .. وهى تقعد جنبى . احتضنتها بذراعى فقربت منى شفتيها ولثمتهما وقلت لاسعد :

ـ لا .. فهذه حبيبة روحي وخليلة نفسى وحيـــاة قلبى .

فزفر أسعد الحريرى زفرة صريحة اشمأزت لهـــا نفسى . ومسحت « حياة » جبينى الملتهب بصفحة كفها وقالت بصوت رخيم :

ـ سكرت يا عبد الله .

نظرت حولى وانقبض قلبى فجاة ، وقلت لها :

ـ نعم . فكم انا وحيد !

***

دقت الاجراس من حولى واقتحمنى الهلع . فقـاعة

انسي وبهجتي .. احتل الدلالون أرجاءها يدقون أجراسهم ويدللون للمشترين على متاعي وآثاث بيتي !

وعلى دقات اجراسهم المشئومة يغشى على وافيق لاشهد بعيني راسي حالي يحول ، ومالي يذهب ..

ضاع كل ما أملك بأسرع مما يجف الماء في قيظ الصحراء . اخذتني الدهشة واستبد بي الروع . كل شيء احببته في حياتي ينادي عليه الدلالون ويتزاحم حوله التجار وعابروا السبيل ويشترون !

والذي يباع ويشترى في خاطري ليس آلا لحمي ودمي ونفسي وذكرياتي وأيامي وسعادتي .

وفجيعتي كانت اوجع أذ أشاهد رفاق انسي واصدقاء شبابي وضيوف امسياتي بين المتزاحمين يتسابقون على اقتناء متاعي .

.. على ابن الشهبندر ، والحسنى لبن شيخ السوق .. أسعد الحريري ومحمد الخيام واسماعيل البصري ويونس الزجاج .. وقد الهاهم أنهماكهم في تسقط اثمن حاجاتي بأرخص الاثمان عن ملاحظتي او حتى النظر ناحيتي .

وحول القاعة التي رجعت حيطانها أعذب الغناء والشعر والالحان .. كان الدلالون يجأرون بالصوت الاجش :

ـ كوفية النقش ، طولها عشرون ذراعا ..

خمسون طبقا من الفضة الصافية .. مملوك بملابسه، مطرزة بخيوط الذهب ..

وفي ركن قصي نما الى سمعي صوت محمد الخيام

يحث اسعد الحريرى :

ـ ماذا تنتظر ؟ ستضيع منك احسن الاشياء .

فقال الحريرى :

ـ انتظر النداء على المغنية . هى وحدها بغيتى .

فتقطعت من الحسرات ، وغشى على لحظة لافيــق وأحد التجار ممن لا يعرفنى ممسك بملابسى يهــزنى ويصيح :

ـ وهذا المملوك .. لاتبيعونه ؟

فقمت ودفعته فى صدره دفعة طرحته أرضا ، وتباعد المحيطون بنا من الذعر وانا اصرخ :

ـ رح فى داهية !

واضطرب الحال ، فتجمع الدلالون حولى يمنعوننى عن التاجر ويتلطفون بى ، وشيخهم يقول :

ـ رويدك ياسيدى .. يكفيك !

***

مالت الشمس ، وقد خلت القاعة تماما فاذا هى ملساء ليس بها شىء قائم .

ولم يبق أحد . ذهب الجميع بكل شىء .

راح الاثاث والجوهر من بعد الدكاكين والعقــارات والضياع والمال ..

وبقيت وحدى فى قاعتى غير مصدق .. و « حياة » بقيت لى معى ، قاعدة فى الركن القصى من القاعة تنظر

الى ، وقد تجردت من حليها وزينتها واتشحت بوشاح خفيف هو كل مابقى لها ، وعودها الذى أسندته على فخذها ، وظلت تنظر مستطلعة .

ولما مضت ساعة لا أكلمها ، ولا نسمع فى قاعتنا نأمة، احتضنت العود وضربت وترا رجعت صداه الابهاء الخاوية ثم عزفت لحنا فيه شجن ، وغنت بصوت ينفذ الى القلب :

سلم الامر للقضا
فهو للنفس أنفع
كل ما راح وانقضى
ليس بالحزن يرجع

ثم سكتت ، وارخت جفونها ، فقلت :

ــ تغنين ؟ !

قالت : بدلا من القنوط .

قلت : لا بديل عنه .

قالت : لا يموت الشباب في مثل عمرك كمدا يا عبد الله .

ــ فماذا يفعلون ؟

ــ فكر فى طعامك .

ــ لم يعد تحت يدى ثمن وجبة طعام .

ــ .. وفى طعامى ..

ــ أفكر فيما لا أملك ؟

ــ لابد مما ليس منه بد .

ــ وما هو ؟

ـ تبيعني بشيء تأكل به ..

ـ ماذا قلت ؟

ـ تبيعني بشيء تأكل به ..

قلت : بعت كل شيء احببته في هذه الدار . الذهب والفضة . السجاجيد والاثاث والتحف والثياب . لكي احتفظ بك . احببتك . انت مابقى لي من مباهج هذه الدنيا ، علاقتي بالحياة . انت مابقى لي من حياة ..

قالت : اما انا او الحياة .. اختر لنفسك .

ـ احبك .

ـ عش من بعدي ولا تمت جوعا بي . هذا مايقول اهل الزمان ..

صحت : ماذا يقولون .. اشترى بقلبي وجبة طعام ؟!

***

هكذا مشت « حياة » ورائي الى السوق في الصباح ، وسلمتها بيدي للدلال ، ووضعت منديلي على عيني ليشرب من دمعي وأنا اسمع نداءه :

ـ جمالها عذب .. وغناؤها عذب ..

والناس يقولون : ثلثمائة دينار .. وخمسون ..

ابتهلت الى الله بقلب صادق .. قلت : « يارب . يقولون أن قتل النفس حرام وان قتل الغير حرام . وقد قتلت نفسي وزدت فقتلت حياة . فانزل عقابك بي الساعة ولا تغفر لي شيئا من ذنبي » .

فاذا بالدلال يدفعني في صدري بكيس في يده :

ــ هاك ياسيدي . خمسمائة دينار ..

فرفعت المنديل عن وجهي ورأيت عينيها الدامعتين تنظران مليا في وجهي ، نظرة خيل لي انها مثقلة باللوم والعتاب ، فتفجرت بقلبي الحسرات . ورايت رجلا من خلال دموعي يقتادها من يدها ، عرفت فيه أسعد الحريري نفسه ، فذهلت عن نفسي وعمن حولي .. لم اشعر بالدلال ، وهو يدفعني ويجذبني ويهزني ويهيب بي :

ــ خذ مالك يافتى . بارك الله لك فيه .

***

وجدت نفسي في بيتي ، وبيدي كيس نقود .

أنكرت بيتي وانكرت نفسي ، ودأهمتني وحشة ونفرة من بيتي ومن نفسي فخرجت أهيم على وجهي .

لا أعلم كم مضى على من الوقت وانا أذرع حارات المدينة وأسواقها كالتائه ، وبيدي كيس النقود !

ألفيت نفسي في ساحة المسجد ، وقد قعد الشحاذون والدراويش والتائهون على الارض مستندين الى جداره في مساحة من الظل .

جلست بينهم واسندت ظهري للجدار ، فشعرت بأعضائي كلها تحن الى الارض ، فتزحزحت قليلا لارقد ، ووضعت الكيس تحت رأسي .

لعلى نمت برهة .. فما شعرت الا ويد تسحب الكيس

بقوة جعلت راسى يرتطم بالارض . قفـزت واقفـــا ، ورايت اللص يشق الساحة المزدحمة وبيده الكيس فاندفعت وراءه وأنا اصرخ :

ـ السارق ! السارق !..

ثم لم اعد اراه في الزحام . لم اتبين هل انعطف فى زقاق او اختلط بالهرج من حولى حتى تعذر على تمييزه بعد ان اخفى الكيس . وقفت فى موضعى اواصـــل الصراخ وقد تجمع حولى جمهور من آلناس يظهرون الجزع والاشفاق . سمعتهم يقولون :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله !.. كل يوم حادث ؟!.. فى وضح النهار ؟!.. لم يعد فى الدنيا أمان !..

وبعضهم يسألون : كيف سرقت ؟

فتعلقت بالسؤال ، وانا ما ازال اصيح :

ـ خطفوا الكيس من تحت راسى . وانا راقد سرقوه من تحت راسى !..

وآخرون يسألون :

ـ كم سرقوا منك ؟ ماذا سرقوا منك ؟..

فتذكرت « حياة » .. وشققت ملابسى فى الســـاحة بين الجمع ، واطلقت العنان لحسراتى وبدوات غضبى :

ـ سرقوا كل شيء !.. حياتى !..

وبعضهم مايزالون يسألون :

ـ هل تستطيع أن تتعرف على اللصوص ؟..

فجر السؤال النجوم من عينى ، وعلى ضوء برقهـا بقوة جعلت راسى يرتطم بالارض . قفزت واقفـــا ،

من أول أسعد الحريرى ورفاق الندم .. الى هـذا الخليط الذى أزدحم حولى تلبية لصيحاتى .. ومن خلال الرياء فى تلك الوجوه ، ووراء ما تتظاهر به من الجزع .. رأيت فى الوجوه هنا من لم يسرق وراحة من أخطائه الجنائية ، وفضول من ينتوى الحذر والاحتياط وتطلع من يريد تزجية الفـراغ ومعالجة الملل ، وروح التشفى التى يضمرها من يتهيأ منهم لأرسال النصـح للمجنى عليه .. وكلهم من أبناء السوق المحيط بساحة المسجد ، ويرددون :

ــ هل تستطيع أن تتعرف على اللصوص ؟..

فدافعتنى الشفقة على نفسى من شر النـاس .. الى التهور فى الاتهام ، فصحت بينهم :

ــ اتعرف على اللصوص .. نعم استطيع . ليست اللصوص بعيدة عن المكان . انتم اللصوص !

دفعنى بعضهم بأيد منذرة وهم يقولون :

ــ احتشم ياولد !.. امسك ياوقح ! ..

فتوهمت الساحة من غضبى ، ودافعتهم كأعداء ، وانا اصيح بهم :

ــ لا استطيع أن اتعشى بأكثر مما تتسع له معدتى ، او اشرب اكثر مما تحتمل رأسى ، او البس اكثر ممـا تطيق سخونة جسمى .. فكيف أفلست أيها اللئـام وضاعت ثروتى ؟!

فيم تبدد مالى وضاعت حياتى يا ابناء الحـرام ويا اهل الغش وسوء الطوية واللصوص !..

ذلك اليوم ، فى تلك الساحة ، عاقبنى من لم اعرف .. عقابا طلبته بتهجمى ، واستحققتـه بجسارتى ، وساذكره طول حياتى ..

النار لا تحرق المؤمن

قادتنى قدماى الى سوق السجاد .. ودكان الشيخ مصطفى .

كان صديقا لابى حتى آخر عمره . وكم تدللت بين ذراعيه وانا طفل صغير .

تهلل حين رآنى ودمعت عيناه وهو يقبلنى .

قعدت امامه على مصطبة بالدكان أحكى له خيانة الزمان وآلخلان ، وبين يدى كأس من الشراب المسكر لم تمسسه شفتاى .

فلما اتممت حكايتى هز راسه متعجبا متأسفا وسألنى :

ـ انا لك كأبيك يرحمه الله ، فلم لم تأتنى قبل اليوم ؟

همهمت معتذرا وهو يسترسل :

ـ قبل أن تفلس . قبل ان تبيع اثاث الدار .. قبل ان تبيع الجارية التى أحببتها .. قبل ان يسرقك اللصوص .. لماذا لم تزرنى قط ياعبد الله ؟

ـ كرهت ان أضجرك بهمومى وحماقاتى .

ـ كنت احملك صغيرا على كتفى . كنت العب معك العاب الطفولة فيضحك منا ابوك .. انا وابوك دللناك وافسدناك . هذا مرضك ياولدى . وهو مرض لايصيب

الا اولاد الاثرياء . هل بقي عندك شيء ؟

قلت : لا شيء .

ــ الضياع والدكاكين ؟

ــ ذهب كل شيء .

ــ الجوهر والمال والتجارة .

ــ لم يبق شيء .

ــ لا تقنط ياولدي . كان مال ابيك وراح بعد ابيك . لم تخسر شيئا تملكه بعد . اعلم ياولدي أنك لو كسبت مالا بيديك فلن يضيع منك بهذه السهولة ابدا ، وستحرص عليه ، وستجد ماتتمناه أن شاء الله .

قلت : ماذا أتمنى اليوم ؟

قال : ماذا تتمنى ؟! .. أهذا سؤال ؟!

قلت : هذا هو السؤال . عندي هو السؤال ..

فنهرني الشيخ صائحا : انس ماكان ياولد ! الدنيا أرحب من كل احزانك ! .. اتزوج احزانك ؟!

غص حلقي وانا أقول :

ــ أين المفر من احزاني ؟ .. كل حجر في الدار ، كل قائم في السوق ، كل بقعة في بساتين دجلة .. تثير حسرتي وتنسج خيوط أحزاني ..

ــ لا ياولد .. لا . لم تبلغ العشرين من عمرك بعد . لا تتلفت وراءك وانظر الى الامام . بدل مكانا بمكان وحياة بحياة . ارحل عن بغداد واتجه للبصرة او للشام او الى مسقط .. وابدأ هناك .

ـ نعم ياعمى .
ـ ساعطيك بعض المال .
ـ لا بربك . . فما جئتك لهذا .
ـ ولم لا ؟
ـ اعفنى ولا تخجلنى .
فتح الشيخ عيناه عجبا :
ـ خجول انت ؟! لعن الله شيطانك ! اترك الخجل ياولد واقتحم الحياة !.. بجسارة وقوة عزم اقتحم الحياة ! لا تكن ابدا خجولا أو ضعيفا او مرهف الشعور اذا كنت تريد ان تذوق حلاوة الدنيا اقتحم الناس واقتحم الحياة !.. انظر الى الدنيا فى عينيها واقتحم الناس والحياة ! .. سمعت ؟!.

قمت من عند الشيخ احسن حالا واقوى نفسا . . فبعت دارى واشتريت متجرا بثمنه واكتريت فى قافلة تقصد البصرة .

اخترقت القافلة حوافى الارض المزروعة والصحراء ، فكانها نفذت بين الضدين . وطابت لى وحدتى وعزلتى فى الرحلة وهدات نفسى .

وما وصلنا البصرة حتى انفصلت باحمالى وتجارتى عن القافلة اشق السوق فوجدتها عامرة بالدكاكين والبيع والشراء ، تتجاوب فيها اصوات الدلالين بنداءات بائعى المشروبات الباردة وادعية الدراويش .

وفى صدر السوق لافتة تدل على « الخان » . قصدته

فاستقبلني صاحبه « جابر » على الباب .

ـ أهلا وسهلا بسيدي ومرحبا . أدخل للداخل وانا اتولى عنك وضع الاحمال في حاصل الخان ومحاسبة الحمالين ..

اقعدني في صحن الخان جنب نافورة الماء في مجلس ظليل وامر لي بالشراب الحلو والقهـــوة ، ومضى عني فافرغ حمولي في حاصل الخان ثم عاد يبش بوجهي ويسامرني .

ـ من أين قدومك ياسيدى ؟

ـ بغداد ..

ـ زينة المدن وحاضرة الدنيا وبيت خيار الناس .

قلت : هل أطمع في أن تجد لي دلالا نشيطا يساعدني في بيع تجارتي ؟

ـ سيكون لك ماتريد .

ـ شكر الله فضلك .

ـ .. ولو اني كنت اظنك تركب البحر ..

ـ اركب البحر ؟! ..

رددت قوله كرجع الصدى ، وكاني لاول مرة في حياتي اسمع عن ركوب البحر .

قال : شاب في مقتبل العمر مثلك ..

قاطعته منكرا : وما فائدتي من ركوب البحر ؟..

قال : التاجر الذي سيشتري منك تجارتك .. ربما ركب بها البحر وباعها باضعاف ما اشتراها منك .

ـ بلى .. ولكن البحر ..
ـ ربح وفرجة ، وتجربة ثمينة . .
ـ وهل سافرت انت فى البحر ؟
رمى ببصره فى ماء النافورة ، واستسلم لخواطره، ثم قال :
ـ نعم . ولكن لك ماتريد ياسيدى .
فشردت خواطرى ..
اركب انا البحر ؟!
شىء لم يخطر ببالى قبلها قط .

***

فى العصر قمت اتمشى فى المرفأ ، فهالنى مابه من سفن عملاقة وحركة دائبة .. والعاب الحواة يجتذبون انظار المارة .. وهرولة التجار والحمالين والمتسببين فى الرزق ..
رأيت سفينة كبيرة متصلة بالشاطىء بسقالة ضخمة من الخشب ، والناس صاعدة عليها . وفوق السفينة قبطان له هيبة ، وحوله مساعدوه ، وقد تفرق البحارة فى كل موضع من سطح السفينة يعملون بهمة ويتداولون الحبال ويرشدون الركاب والحمالين ، ومساعدو القبطان ينادون :
ـ ياركاب السلامة . اصعدوا الى السفينة .
وعلى الشاطىء كان الناس يلوحون مودعين ، ويشيرون بالمناديل والشرطة تنفخ ابواقها ، وقد ارتفعت الرايات الملونة ايذانا بالسفر ..

اخذتني روعة المشهد ، كأنه عرس مقام ، وتفرقت في خواطرى تفاصيله فاستخفتني وأطربتني وحملتني على جناحها من النشوة .. فسرت بمحاذاة الشاطىء استطلع نهايته حتى وصلت الى بقعة هادئة بعيدة تناهت الى فيها أصوات المرفأ خافتة هامسة .. ورأيت السفن من موضعي أصغر حجما مكللة بأعلامها الملونة وحبالها المتقاطعة .

وفوق الاصوات البعيدة رنت في اذني ضحكات اطفال بريئة قريبة ، ولمحت في الماء القريب طفلين يلعبان ويتماحكان ويتضاحكان وكل منهما يرش الاخر بالماء ويناوره سابحا في مهارة وخفة .

ونظرت الى الماء البعيد فلمحت سفينة تقترب مقبلة من سفر ، فغمرني هدوء وغبطة .. شقتهما بفظاعة صيحة مفجوعة ، فنظرت .. واذا بالطفلين يتسابقان نحو الشاطىء ويصيحان :

ـ غريق !! ..

فتجاوزتهما ببصرى .. ورأيت الجثة الطافية المتورمة !

من حولى تسابق الناس مهرولين للنجدة ، بينما جريت انا الى الخان وقد ألم بى غثيان وروع ، فاعتكفت بغرفتي مضطربا مفزعا .

فلما ضقت بعزلتي وبوحشتي في غرفتي هبطت الى صحن الخان ، فألفيت « جابر » يهم بالخروج . أقبل نحوى متسائلا :

ـ أين كنت ؟

ـ فى غرفتى .

ـ اتحب ان تتفرج على الدراويش ؟

ـ ماذا يفعلون ؟

ـ تعال انظر بنفسك .

جذبنى من ذراعى فانقدت له . اخترقنا المدينة الى ظاهرها ، ودخلنا البساتين حتى وصلنا الى باحة واسعة بين الاشجار فى وسطها نار هائلة تتقد بجذوع الشجر الكبيرة ، وقد احاط النار والباحة زحام من الناس المشدوهين ، يتصببون عرقا وتلمع وجوههم .. لفحتنى السخونة فخلعت عباءتى ورميتها على كتفى وانا اخترق الزحام مع صاحبى الى موضع أرى منه مايجرى ..

حول النار تحلق بنيرانها طبالون يدقون طبولهم دقات مدوية موقعة ، ودراويش كثيرون شبه عراة تتوهج اجسادهم كأن النار تتراقص عليها .. ويترنحون على ايقاع الطبول وينشدون وهم يتقدمون فيضربون ألسنة النيران بالايدى والارجل فتتراجع النيران لضرباتهم ولا تصيبهم بشىء .. فيزيدون باقتحامها واختراقها ، ويطأون أخشابها وجمراتها الحمراء ، ثم يتراجعون عنها سالمين لم يصبهم لظاها بسوء ، فيهلل القوم ويكبرون وينخرطون مع الدراويس فى الانشاد والتمايل على أيقاع الطبول فى انفعال عنيف :

لا تحرق المؤمن .. باذن الله

لا تحرق الداعى .. باسم الله

لا تحرق السائل .. بباب الله

لا تحرق الحاوى .. لسر الله

وجرى الدراويش فى الباحة وقد أخذتهم النشوة يقتحمون الناس ، واختطف احدهم عباءتى من فوق كتفى واقتحم بها النار يضرب الالسنة اللاهبة يمينا ويسارا ، والدراويش يفعلون مثله بملابس أخذوها من الناس ، والدنيا تضج بالانشاد .. واللهب يتراجع مذعورا منكمشا حتى خبا وانطفأ ..

فلما اعاد لى الدرويش عباءتى فحصتها فأخذتنى الدهشة والنشوة :

ـ انظر ياجابر !.. لم تصبها النار ! .. اطفأت النار ولم تصبها النار بشىء !..

فضحك صاحب الخان من قولى .

***

حين وصلنا الخان ، جابر وانا ، الفينا جماعة من التجار والبحارة يأكلون ويسمرون فى صحنه حول النافورة ، وأحد البحارة يروى النكات وهم يضحكون .. كان يقول :

ـ نزلنا ثلاثتنا جزيرة المتوحشين فأمسكوا بنا واقتادونا الى ملكهم الذى فحصنا مليا ثم قال : قدموا لى هذا مشويا فى الغداء ، والثانى مقليا فى العشاء .. اما ثالثهم فحلوا وثاقه وخلوا سبيله فهو صاحبى وقرأ معى مذهب العدل على الشيخ واصل بن عطاء !

وضحك الحاضرون ، ونحن من جملتهم ، بينما صاح احدهم بالبحار :

ـ وانت ؟ ماكان نصيبكَ في الثلاثة ؟
ـ كنت المشوى في الغداء .
ـ لكنكَ حي ، فكيف حييت بعد الشي والغداء ؟
ـ مولاى . الناس يقولون حي يرزقَ .

فباى برهان من براهين المناطقة يستقيم بوهمكَ انى حي .. اذا كنت لا ارزق ؟!..

وتجاوبت الضحكات .

***

تلكَ الليلة ارقت ..

قلت لنفسي : اذا كان الرجل بقوة عزمه وايمانه يقتحم النار ليفوز ببضعة فلوس من صدقات الناس ، فكيف اقطع انا رزقي لخوفي من ماء البحر ؟..

خجلت من خوفي ومن ضعفي ، وتخيلت انى اعود الى بغداد بعد بيع متجرى لاعاشر احزانى وذكرياتى واصادف ماصادفت من لؤم اصحابى وشماتة اعدائى .. فحزمت امرى ، وكنت بعد ايام مع الصاعدين السقالة الى سفينة بديعة اكتريت عليها ، وارتفعت اعلامها .. وعلا صياح بحارتها :

ـ ياركاب السلامة . اصعدوا الى السفينة !

نظرت من فوق السفينة فاخذنى الطرب من نشاط الحركة في المرفأ وتصاعدت الى انفى رائحة البخور وملأت اذنى ادعية الداعين بالسلامة .

صاح القبطان : ارفع السقالة !..

فرد البحارة صائحين : ارفع السقالة !..

ثم صاح : ابتعدوا عن السفينة !..

وردد البحارة : ابتعدوا عن السفينة !..

فتباعدت الزوارق الصغيرة على عجل ..

— القلع الصغير .. ارفع !..

وردد البحارة الصيحة ، فشدت الحبال ، وانتشر القلع العلوي الصغير ككف كبير إمتلأ بالريح ، اهتزت له السفينة وتحركت ، فاحسست كان ارضا تنفصل عن الارض بزلزلة ، فتشبثت بحاجز السطح ، ورأيت الشاطيء يدور امامي متراجعا كأن قوة خفية تزيحه .. فاخذني الخوف ، وهمهمت : « لا اله الا الله .. »

البحارة في شغلهم منهمكون ، يتحركون هنا وهناك بانتظام ، والقبطان في وسط السطح يصدر الاوامر فيرددها مساعدوه ..

— القلع الكبير .. ارفع !..

نفرت الطيور في السماء فجأة .. اذ انتشر الشراع الكبير وامتلأ بالهواء فارتجت السفينة ، ومالت يمنة ويسرة ، ثم استقامت وشقت البحر بقوة الريح كطائر عملاق سابح في الفضاء .

هرولت نحو التجار والمسافرين وقد قعدوا حلقة فوق السطح الامامي ، واخفيت اضطرابي في جمعهم ، وقد ضرب احدهم اوتار عوده ضربا قويا وغنى :

ماكنت أعلم مافي البين من الم

حتى تنادوا بان قد جيء بالسفن

قامت تودعنى والدمع يغلبها
فهممت بعض ماقالت ولم تبن
مالت الى وضمتنى لترشفنى
كما يميل نسيم الريح بالغصن
واعرضت ، ثم قالت وهى باكية :
ياليت معرفتى اياكَ لم تكن
فهاجنى الشوق ، وتذكرت « حياة » ..

سالت دموعى ، وداريت وجهى عن الجمع انظر الى الشاطىء الذى يبتعد ، وكان عمـــارته تغرق وتؤذن بالتلاشى ، وسالت نفسى : ياعبد الله ..

انت هارب من دنيا الناس ، ام انت تقتحم المجهول املا فى استرجاع الثروة ؟

رايت من بعيد عمران الناس يغرق فى البحر فنازعتنى مشاعر التشفى ومشاعر الحنين ، والسفينة تبحر فى عباب البحر كانها تعرف قصدها ، وأنا فوقها لا اعـرف ان كنت سعيدا برحلتى أم انا غير سعيد .

الفصل الثالث

الغرق

خرجت السفينة من شط العرب الى عرض البحر ، فاتسعت دائرة الافق ولم اعد ارى أمامي أو ورائي ، عن يميني او يساري . . غير الامتداد الازرق يترجرج الى مدى النظر ، وفوقي الشراع الكبير . . فوقه الشراع الصغير . . ككفين ممتلئين بالريح .

عكف المسافرون في قاعتهم بباطن السفينة ، ولحقت بهم وانا اترنح من اهتزاز العمارة الكبيرة ، فوجدتهم قد اجتمعوا في حلقات لتناول الغذاء وهم يسمرون .

انزويت وحدي اغالب ما اعانيه من الدوار والشعور بالغثيان ، فمس جاري كتفي برفق :

ـ تفضل الطعام ياابن العرب .

فما سمعت كلمة الطعام حتى انطلقت اجري الى سطح السفينة ، متعثرا فوق درجات السلم . . وارتطمت بحاجز السفينة وملت نحو البحر افرغ جوفي . . فاحسست بيدين تمسكان كتفي ، ورجل يقول :

ـ افرغ ما بجوفك ماشئت ، ولكن امسك الحاجز جيدا ، وبعدها وافني في مكاني .

ملت براسي لانظر من يكون ، فاذا هو القبطان نفسه وعدت الى ماكنت فيه وقد تصبب جسمي كله بالعرق

ارتحت قليلا فقصدت مقصورة القبطان في مؤخرة السفينة فرايت بابه مفتوحا وهو مضطجع على اريكه وقد اشتغل بأدواته البحرية . قرأته السلام ودعاني للجلوس وتأملني مليا ..

ـ اول مرة تركب البحر ؟

علمت انه استغرب صغر سني فقلت :

ـ نعم .

ـ ستعتاده ولن يعاودك الدوار .. وبعدها ستحب البحر ..

فتح خزانة خلفه واخرج ورقة مطوية بها مسحوق اذابه في كاس ماء وقدمه لي ..

ـ اشرب ، بالشفاء لك .

فشربت واحسست براحة تسرى فى جوفى .

وسألته :

ـ منذ كم وانت تسافر فى البحر ؟

ضحك وقال : لعلى سافرت اول مرة وانا فى مثل عمرك .

ـ وما دعاك ..

سألنى باستغراب : وانت مادعاك ؟

ـ بعت قلبى بوجبة طعام ، وسرقنى اللصوص ورأيت لؤم الصحاب .. كالمستجير من الرمضاء بالنار ركبت البحر ..

ـ لا لا لا .. لا تقل ذلك ، فالبحر ليس مركب اليائس .. وستقع فى غرامه بعد حين .

مرت الايام طويلة على ظهر السفينة ..

وكان الوقت ظهرا ذات يوم قائظ حين سمعت القبطان ينادي الركاب :

ـ سنرسو هنا بعض الوقت ، فمن أراد منكم ان يجمع من قواقع البحر ويستروح فلينزل على هذه الصخرة .

فما صدقت ان أضع قدمي على أرض ثابتة ، ولو لساعة قصيرة ، فزاحمت النازلين على السقالة الى صخرة خضراء تكاثرت فوقها القواقع فوق بساط من الطحالب .

أرخت السفنة شراعها ، ونزل بعض القوم ممن يشتهون اكل القواقع وبايديهم امواس ينتزعونها بها ، حيث تلتصق القواقع عادة بالصخر بشدة .

تمشيت على الصخرة التى يبلغ طولها خمسة عشر ذراعا وعرضها عدة اذرع .. ووقفت أرقب أحد الركاب وقد انتزع قوقعة على طرف سكين وتناول منها باصبعه ليذوقها ، فلما لاحظني قال :

ـ لذيذة جداً ، فضلاً عن انها طازجة . ذقها ..

فتناولت قطعة من طرف السكين وذقتها فاستغربت ليونتها ..

ـ سانتزع لك واحدة اخرى .

وغرس السكين تحت قوقعة اخرى .. فما رايت الا خيطا من الدم يسرح على النصل ، فانتزعه الرجل ونظر اليه ثم صرخ :

ـ دم ! .. دماء ! ..

فنظر الجميع الى حيث يشير ، وراوا خيط دماء سارح على الصخرة ، فصاح احدهم :

ـ ليست هذه صخرة . النجاة يا اهل الله ! هـذا حوت عظيم نام وتجمعت على ظهره القواقع والطحالب . النجاة النجاة !

فما رايت الا رجالا يتسابقون فوق السقالة كان الموت في اذيالهم والصخرة ارتجت لحركتهم المفاجئة فمالت السقالة وهم بها متشبثون وانا آخرهم ، والقبطان يصيح من فوق السفينة :

ـ لا تتدافعوا ياركاب السلامة . لاتتدافعوا !

والبحارة يجذبون بقوة من كان فى متناول أيديهم من الركاب ، ويمدون الاذرع للاخرين .. والهرج الذى عم فوقى لم يكن شيئا بالنسبة لما شملنى من اضطراب وخوف ، وانا متعلق بطرف السقالة ..

وفجاة غاص الحوت فى الماء فاثار موجة اهتزت لها السفينة ، ودار الماء من حولى في دوامة انتزعتنى مـن فوق السقالة ، ورمت السقالة نفسـها مسـافة ، واحسست بالموج يجرفنى ويغمرنى ويبرزنى ، وحـولى رجال يصارعون الماء على مقربة منى .. أشفقت عليهم وخفت منهم ، حيث أعلم أن الغريق يغرق من يقترب منه مالم يكن أقوى منه ساعدا . وسـمعت القبطـان يهتف :

ـ الحبال للغرقى ..

فانهالت اطراف الحبال من سطح السـفينة وارتطمت بالماء وقد تعلقت بها علامات طافية ، فمن كان على مقربة

من احدها تعلق به ، وجذبه الملاحون ..
رميت بذراعي ابعد ما استطيع ، فغاص طرف الحبل الذي قصدته وغاب في الماء ، وانجرفت علامته الطافية مبتعدة ..
تعلقت حياتي بذراعي ، وقد أصابهما مس من جنون فافلتا من سيطرتي تماما وصارا يضربان الماء بهـــوس استفربته واخافني فوق فزعي اذ أرى أني ابتعد بسرعة ، مع كل مايبذله ذراعاي من جهد ، عن السفينة !
في لمحة خاطفة رايت رجلا يصارع الموج مثلي على بعد فرسخ مني ، فهالني أن الماء يدفعني بعيدا .. وتناهى الى سمعي من فوق سطح السفينة صياح القبطان وصيحات البحارة تردد خلفه اوامره :
ـ الناظور مكانك . الدفة الى اليمين درجة .. درجة .. درجة ..
وصوته يذوب .. والسفينة بشراعيها الممتلئين بالهواء تدور دورة كاملة ، تبحث عني وعن الفريق الاخر .. فعلمت من وجودي خارج منحنى الدائرة ان تيار الماء كان أسرع من محاولات انقاذي ، وعدمت الامل في نجاتي .
نظرت نظرة ملؤها الحسرة الى السفينة البعيدة وهي تواصل الدوران في دائرة مكتملة ، انا خارجهـــا .. وصيحات القبطان والبحارة تخفت وتبتعد مع أملي الذي يتلاشى .. ولاول مرة في حياتي امتلأت اذناي فجـــأة بالصمت المطبق !
اخافني فوق خوفي .. ووهنت قواي .
وايقنت بالهلاك ..

تذكرت جابر والدراويش ..

تذكرت جثة الغريق في ماء البصرة ..

تذكرت آلامي وعذاباتي التي دفعتني لركوب البحر .. واصحابي وندمائي الذين تسابقوا يتسقطون كل ما احببته في حياتي من متاعي بالثمن البخس ..

تذكرت حياة واسعد الحريري قد اشتراها آخر الامر .. واقتادها دامعة العينين ..

تذكرت لصوص السوق الذين سرقوا دراهمي في ساحة المسجد ، ومالحقني من أهل الناحية من اهانات وضرب ..

ولعنت كل هؤلاء ..

الا أن برودة الماء سرت في دماغي ، او لعل الاحساس بدنو الاجل هو الذي اغرق مشاعري في برده .. فالفيت سخطي يتراخى وغضبي يتخلى عني ..

كانت تسري من حلقي الى صدري حسرة باردة مستسلمة ..

واقوى ماكان يستبد بخاطري في تلك الساعة ، ويستحوذ على فكري هو أن تدبيري كان قاتلي .

سوء تقديري للعواقب هو الذي رماني في مهاوي الفشل والخسران منذ مات أبي حتى هذه اللحظة الرهيبة .

شعرت بصغر نفسي وانا اتذكر لهفتي وانكبابي على الملذات ، ولا مبالاتي وانا اغرق في الديون . وحماقاتي كلها ..

تمنيت ساعتها لو اني كنت صـــادفت في ايامي مايرجرني ليوجعني ، فأفيق قبل فوات الاوان .
تمنيت لو كان الحظ واتاني مرة بمثل ضربة على الراس تنتشلني من غفلتي ومن غيبتي ..
ضربة على الراس !!
احسست بها مرة اخرى ، فارتعد جسدي من الروع حيث حسبت ان الجنون والهلوسة قد سبقا المـــوت والهلاك الي ..
الا ان ضربة اخرى على الراس جعلتني التفت موجها مغضبا ..
فرايت السقالة !
سقالة السفينة يدفعها الموج لتضربني من جديد على الراس ..
فتحت ذراعي واستقبلتها بالاحضان وهي تقتحـــم ضلوعي ! .
جرفها البحر او القدر لي ، فلقيتها بدمع ينهمر من الفرح ، وبقلب يخفق لاعز حبيب !
ارتقيتها بعد عناء ، ونظرت حولي فاذا دائرة الافـــق مكتملة وقد اختفت السفينة تماما .
ارتخت اعضائي تحت وطأة الانهاك فاغمضت عيني . لعلي نمت فأيقظتني برودة الماء ..
فتحت عيني هلعا فوجدتني سقطت في البحر والسقالة تبتعد عني في عتمة المساء . ضربت المـــاء بجنون حتى

ادركتها وارتقيتها وتشبثت بهـــا وانا اقاوم ارتخاء جفنوني ..

حاولت الصراخ أو الغناء او الجهر بالحديث ، لاطرد النوم .. فما سمعت صوتي .

اقسمت لنفسي الا انام وشددت ذراعي على السقالة بقوة المستميت .

ولكني فكرت ان ذلك كله لن ينفعني ، والسقالة ان فقدتها سأفقد حياتي .

وضعت يدي على راسي أتحسس عمامتي فوجدتهـا محلولة الا أنها ماتزال متعلقة بكتفي ، فجذبتها وكانت من قماش طويل فرقدت على السقالة ولففتها حولي وحول الخشب وعقدت طرفيها عقدة مزدوجة فاطمأن بالي قليلا واخذت اجدف بذراعي لانشط نفسي .

ومع ذلك لاشك اني نمت على رغمي .

لا اعرف كم من الزمن ..

ما شعرت الا بهزة كادت تخلعني من فوق السقالة .. فصحوت ووجدت سفينتي الصغيرة قد ارتطمت بالصخر في المياه الضحلة .

رفعت بصري فامتلات نفسي برؤية الاشجار والاطيار على ارض خضراء ..

حللت وثاقي وجريت الى الشاطىء فارتميت على رمله وحشائشه وتلذذت بلسعة حرارته على جلدي . خيـل لي اني اصيح : نجوت ! نجاني الله ! لم يغرقني البحر !. غير اني ان كنت صحت فلعل صوتي اغرقه امتلاء اذني

بمهرجان الاقازيد في السماء وتحفيف النسيم الى غصون الشجر ..

تفقدت اعضائي فوجدت ساقي وذراعي غارقة في دمي وقد غطتها الخدوش فعلمت أن أســماك البحر حاولت اكلي ولعل الذي صدها انتفاض جسدي او مقاومتي على غير وعي مني ..

تحت ظل شجرة سقطت ، وشعرت بثقل اجفـــاني تتمددت ، وسرعان ماعدت الى السبات العميق .

***

صحوت لأرى سماء ساطعة الضياء ، وسحبا خفيفة تدفعها يد الريح الحانية ، وقمم الاشجار ..

اجتهدت ان اتذكر : اين أنا ؟.. وكيف جئت الى هنا ؟ ..

فلما انتظمت ذكرياتي احسست بالجوع والظمـــأ ، وبالضيق من ملابسي .. فقمت وخلعتها ، وتلفت حولي فرأيت أشجار جوز الهند ففرحت . جوز الهند طعـــام وشراب .. ولكن كيف السبيل الى ثماره العالية ؟

التقطت حصاة كبيرة من الارض ، وأحتشدت ورميتها عاليا فقصرت عن ادراك الثمار .. ولكن انهالت على ثمار كثيرة من كل الاشجار حولي فانبطحت على بطني وحميت راسي بذراعي ولمحت من موضعي عشرات القرود في أغصان الشجر تتقافز هنا وهناك وقد استخفها فعلى حينئذ قذفت الحجر فصارت تقذفني بجوز الهند جزافا وتتصايح في مرح ..

فلما توقفت القذائف رفعت رأسي وقلت :
شكرا يارفاقي !
نزلت القردة من فوق الشجر واحاطت بي ترقبني وتنتظر ما افعل ..
تناولت ثمرة وشممتها ووضعت خرقها على فمي وانسالت عصارتها في جوفي فكانت الذ ماشربت في حياتي .
تناولت ثمرة أخرى اشجها فاذا القرود تتناول الثمار مثلي وتشجها وتضعها على أفواهها وتشرب كما أشرب ، وتاكل كما آكل ، وهي ترقبني وتقلدني ثم تتصايح في طرب .
اكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ..
وهم بعد ما اكلوا وشربوا صاروا يتقافزون في مرح ويتخاطفون الثمار من بعضهم البعض ويتقاذفونها وانا اتقي أن يصيبوني بهدرهم .. ثم يتاملونني وانا اتاملهم ، حتى غلبني الضحك منهم واستلقيت على الارض فزادهم مرحي مرحا وطربا واحاطوني كاطفال تلعب ، وشاغبوني بالايدي فاخذتهم بين احضاني العب معهم وقد تدفق حناني .. فما كان الطف وارق استقبالهم لي !
اكلت وارتويت واتنسست برفاقي ففكرت اني ربمـــا قضيت حياتي هنا ، فعلى أن استطلع اين انا .
مشيت يمنة ويسرة اتفقد المكان ، واتخير المواقع المرتفعة لانظر حول المنطقة .. والقرود من حولي ، تتطلع مثلي ، وتظلل عيونها بايديها أن فعلت ، وتتبعني أن مشيت ، وتتصايح مرحا أن فاجأتها بالنظر اليها ..

رايت بهاء تلك الجزيرة وثرائها الاخضر الباذخ ، وملأنى السرور باشجارها الفارهة المتوازنة وغصونها الممتدة والوانها المتفجرة واطيارها الشادية وسمائها الساطعة وبحرها الهادىء الملتف حولها ، وينابيعها العذبة النابعة من الصخر ..

قلت : هذه صورة من الجنة التي وعد الله بها المؤمنين ، فهل يأذن الله ان اقضى بقية حياتى فى هذا النعيم عوضا عما لقيته من شقاء وعنت فى بلادى ؟

ركعت على ركبتي شكراً لله الذى وهبني دون شريك ، هذه الجنة الصغيرة الممتدة .

وقلت : ان كان الله قد خصنى بهذا النعيم فعلى ان اصنع كل ما أستطيع لتيسير مقامى به .

اول ما فكرت في صنعه بيت يقينى المطر والحر والبرد ..

صرت انتقى الاغصان الضعيفة وانتزعها من اشجارها .. فما راعنى الا نهوض القرود من حولى

يفعلون مثل ما افعل بذكاء واهتمام .

حملت الاغصان على ذراعى ، والقردة من حولى تحمل اغصانها ، وتخيرت مكاناً على الشاطىء واسعا ومنبسطا وضعت فيه حملى ، ووضع القرود احمالهم ..

شرعت في بناء الكوخ وتثبيت أركانه بفروع قوية ، ثم ملء الفراغات بالاغصان الاخرى ، وربط أوصاله بالفروع الرفيعة .. والقرود تناولنى ما اشير اليه ، وتشد معى ما اشده ، وتزاحمنى فيما أفعله .. ثم ياخذها الطرب فتتقافز متصايحة وتعوقنى فانهرها

وادفعها ؟ لتدفعني .. ثم نعود الى العمل .

قام الكوخ بعد حين ..

فجمعت ملابسي من هنا وهناك وقصدت اقرب نبع ماء وصرت اغسلها جيدا ، والقرود تزاحمني فاعطي بعضها قطعا من ملابسي فتنفعل مثلي ، ثم تتنازع الملابس فاضطر للتدخل لاستنقاذها من ايديهم قبل ان تتمزق .

نشرت ملابسي واستحممت فلما جفت لبستها وجمعت ثماراً والقرود يساعدونني ويفعلون مثلي .. فلما آذنت الشمس بالغروب تعشيت وتعشت قرودي وجمعت بعض الحطب وجلست على باب بيتي وجلست القرود من حولي ينتظرون .

اخذت حجرين واعددت مكان النار وضربت الحجرين التمس الشرر والقرود بيديها احجار مثلي تريد ان تفعل كما افعل .. فما ضربت أحجارها وطق منها الشرر .. رمت الاحجار وقد اخذها الهلع وجرت هنا وهناك وانا أنفخ ناري وأتقرب من دفئها .

عادت القرود بعد ان هدأ روعها لتحيط بي مبتعدة عن النار قدر مايمليه عليها الحذر وتهمهم وتنظر الي في عجب . قلت لها :

ـ مرحبا بكم في داري يا أصدقائي وندمائي وأضيافي هل تحبون ان أروي لكم قصة ام اغني لكم اغنية ؟

فأجابوني بصيحات التلطف والموافقة .



الفصل الرابع :

جزيرة القرود

لم أعد امشي أو اقعد الا فى هالة من رفاقى واصحابى القرود .. او أشرع فى عمل الا رافقونى وساعدونى بمحاكاة ما افعل .

بل لقد لاحظت القرود عاداتى فكانوا يسبقوننى بفطنتهم الى الموضع الذى اقصده ..

عرفوا ما استطيب من الثمار وما احب فكانوا ينتشرون فى الغابة ويتنقلون مسافات فوق فروع الاشجار ليأتونى بما احب .. فاضحك ويضحكون ، أداعبهم ويداعبوننى ..

انتظمت جلساتنا آخر النهار أمام كوخى .. اغنى لهم فيتمايلون مثلما اتمايل ، ويهمهمون استحسانا ومصاحبة ويتصايحون أن رفعت عقيرتى بلحن قوى .

بل صرت احكى لهم القصص .. فيصفقون ، ثم يهمهمون ويتبعون اشارتى بالسكون أو بالهرج .

عجبت انى أعيش فى هذه البقعة النائية عن بلادى وعن ديار أهلى وعشيرتى ، مع كل هذا الجمع الحاشد ممن يوافقوننى ولا يخالفوننى او يعترضوننى او يكيدون لى أو يضمرون لى شرا ..

واعجب منه ان ارى بعينى رأسى كل ما افعله يتردد

ويتكرر وتحاكيه القرود كان الله قد زاد لى فى جزيرتى مرايا فى كل موقع انظر فيه .. تعكس صورة نفسى وتردد ما اريد وتحاكى ما افعل وتكوره على مدى النظــر بلا نهاية وبغير حساب ..

وهل أعلم ان فى الدنيا سلطانا او ملكا يطمع الا فى بعض ما انعم به من هذا الوفاق والتاييد الوثيق !

واعجب منه أن المماثلة والمحاكاة والموافقة وتكرار افعالى كانت تزج فى نفسى مسرة متدافعة فيغلبنى الضــحك ويستحوذ على مرح تنفجر ينابيعه من حيث لا أعلم فى مكامن نفسى ، وفى أعماق سريرتى وضــميرى ! .. فيهترون لضحكى ويتقافزون مرحين لمــرحى فازداد ضحكا ومرحا واستلقى على ظهرى فيستلقون ويتصايحون حتى استرد أنفاسى .

اما ما تفجر بنفسى من حب لقرودى فكان شيئا لم اعهده قط فى حياتى ، وكان تلك القرود اللطيفة أطفال كثيرون فتحوا بقلبى ينابيع أبوة متفجرة لا يعلم الا الله كيف كان ينطوى على زخمها قلب رجل واحد !

الا أن النفس لم تبرأ تماما من القلق ..

فبعد أن اطمأن لى المقام بالجزيرة ، وصنعت أدواتى وغنيت كل ما أحفظه من اغان ، ورويت كل ماتعيه الذاكرة من قصص ، واكلت كل مالذ وطاب لى من ثمار الجزيرة ، ولاعبت قرودى كل ماأسعفتنى به فطنتى من العاب .. كانت تعاودنى ذكرياتى فى نوبات مفاجئة بلا أسباب أو مقدمات ، فاستغرب كيف يعاودنى الشــعور الجــارف بالضــيق أو بالغضب أو بالحنــق او بالحســرة

او بالحنين لاشياء ماتت في حياتي . واتذكرها على رغمي لتنفعل بها نفسي بلا ضرورة ..

فضلاً عن أن القلق كان يساورني من تدفق مشاعر المرح بنفسي ، وذلك الحب الجارف المتفجر لقرودي .. كنت أخشى من عمق تدفقهما وقوة امتلاكهما لنفسي أن بعض الهوس ربما يخالطهما ..

ثم انكر على نفسي مايعتريها من القلق .. واعزو هذا القلق الذي ينتابني في لحظات هنائي وسعادتي ومرحي الي بقايا امراض الروحية ألتي اصابتني بها الملمات في بلادي وما تكبني به الزمان من مفاجآت أليمة .

***

كنت قاعدا امام كوخي الغني لرفاقي ، وقد تحلقوا بي يتمايلون ويهمهمون ، وانا في اهنأ حال ..

وفجاة .. رايت في عرض البحر سفينة !

واندفعت ناحية البحر كالمجنون ، والقرود تتبعني قفزت مخلوعا اصيح : « سفينة ! »

وتتصايح من حولي غير فاهمة .

صرت اصيح والوح بذراعي :

ــ يا اهل الله !.. هو هو هوهو ..

والقرود تصرخ من حولي ، وصوتها أحد من صوتي ، غرقت فيه صيحاتي .. فأخذت أدفعهم عني وازجرهم :

ــ اسكتوا ، لا تصرخوا . سيظنوننا من وحوش الغابة دعوني أصرخ وحدي .. يا اهل الله ، هوهوهوهو .

فما اجدى مع القرود زجر .. فاندفعت اخوض الماء

مبتعداً عنهم والوح بذراعى بجنون .. فما هالنى الا امساك القرود بى ، وتصايحهم وتشبثهم باعضائى وملابسى مشفقين على من الغرق ، وانا اتملص من ايديهم واضربهم جزافا واواصل الصياح :

ـ أدركونى يا اهل الله .. هوهوهوهو ..

والقرود يتصايحون من حولى لتطغى أصواتهم فوق صوتى ، ويقيدون ذراعى ويخفون جسـمى وملابسى بتزاحمهم لانقاذى !

ابتعدت السفينة .. لم يرنى أحد ولم يسمع صياحى احد ، وانا مازلت أدفع القرود واتوسل اليهم واسبهم واتملص منهم .. حتى انقطع املى فى النجاة ، فاندفعت الى الشاطىء كالمطعون اترف رجائى ذاته .. واتكفات ابكى وامرغ وجهى فى الرمال ..

احاطتنى القرود مهمهمة غير فاهمة ، تلامسنى بايديها فى تلطف ، وبعضها يتقافز متهللا لنجاتى من البحر !

تمالكت جأشى ونظرت الى القرود فى عجب .. وهى تنظر الى فى عجب ، وقلت لها :

ـ لا تعرفون ما انا فيه .. واعجبه انى مالقيت منكم غير الخير ، ومع ذلك اشتاق الى لؤم الناس ، وقسوة البشر .. فويلى من شوقى لاهل الجحود ، وويلى مـن جحودى اياكم !

***

علمت مما وقع ذلك اليوم منى انى مللت حياتى على الجزيرة .. واشتقت لما هربت منه فى دنيا الناس ..

بعد ايام .. كنت في مجلسي امام كوخي وقد تحلق بي أصدقائي ينتظرون ان اسامرهم .. فرأيت «حياة» .. تبدت لي في كامل زينتها بين العازفين تغني بصوت ملأ الفضاء كله لحنا اثيرا ندي :

قفي ودعينا ياسعاد بنظرة
فقد حان منا يا سعاد رحيل
فياجنة الدنيا وياغاية المنى
ويا سؤل نفسي هل اليك سبيل

صحت من الطرب والوجد .. وانا أشق جيبي ؟ وتجاوبت الصيحات من حولي وكان لها جرس منكر هذه المرة .. مزق الوهم فجاة ، فاذا انا ارى بعيني تلك القرود من حولي تتقافز كالشياطين !

استبد بي الجزع حتى غشي على ، فلما افقت بكيت ايامي وتفجعت لضياعي في هذا الكون السحيق ، وتمنيت لو عدت الى بلادي شحاذا فقيراً تزجره الشرطة !

في الصباح تذكرت ماحدث لي فتحيرت من أمري وخفت الجنون ، ولكني قعدت احدث نفسي ..

انا وحيد !

احس بوحشة وبوحدة وبعزلة تمزق نفسي وتعتصر فؤادي ..

كل ما انا فيه من هناء ، كل ماحولي من نعيم وسلام .. لم يملأ فراغ نفسي او يغلب شعوري بالانقطاع والضياع ..

ان شيئا مما انعم به غير قادر ان يملأ حياتي او يملأ

فراغ قلبى .

هذا هو مصدر ما كان ينتابنى من قلق وسبب ماكانت تدهمنى به الذكريات .

انا وحيد ..

كل حديثى وافكارى وخواطرى تجرى فى اتجـــاه واحد ..

لا احد يحدثنى او يجيبنى ان سالت ، او يجادلنى ان تحدثت ..

الطبيعة من حولى لا تتبادل معى اى حوار .

لم استطع ان ارتبط بها بعلاقة ولا هى تسعى لترتبط بى ..

لا يعنيها امرى ولا تخصنى بلفتة واحدة !

لا تعرف الكراهية لانها لا تعرف الحب ..

لا تعرف التواصل لانها لا تعرف الحاجة !

حتى رفاقى من القرود ينظرون الى بالعيون كما انظر اليهم بالعينين .. ولكنهم فى الواقع لا يروننى ولا يفهمون ما انا فيه ، وربما لا يعلمون حتى بوجودى .

تتدفق تصرفاتهم نحوى باعتبـــارى شىء كمـا هم اشياء بالنسبة لى ، يفترضون انى منهم ، ولست منهم ولا استطيع ان اكون ..

الطبيعة من حولى منقطعة عنى رغم متواصلة ، وتحيطنى بجـــدار رصـين مصمت وصامت رغم صخبه ... وانا فى داخل هذا الجدار المحيط رهين السجن الانفرادى الموحش .

الاشجار كالقرود والينابيع الجارية والطيور في السماء تتحرك من حولي .. الا ان حركتها لا تلوى على شيء ، ليس لها غاية او هدف تستهدفه ، وتكرر نفسها ويكرر بعضها البعض بلا غرض .. فحركتها في واقع الامر سكون ، وصخبها في جوهره صمت ، واسترسالها في تماثله ولا غائيته ليس الا غباء مطبق !

وانا في هذا الكون الصامت الساكن ، الصاخب المتحرك في الظاهر .. وحيد ومنقطع بنفسي البشرية التي جبلت على غائية السعي وبناء الهوى وتقلب الاشواق وتغير المزاج وتراكم الاطماع والداب والجنون .

اقول لنفسي .. الانسان ليس ابن الطبيعة . الانسان اجتماعي وحضري ، بينما الطبيعة لا تعرف من الوان الاجتماع غير اجتماع القطيع .. واجتماع القطيع جوهره التماثل والتكرار وهو مايضجرني ويضنيني بالملل الذي يكاد يزهق روحي .

الانسان يكره روح القطيع ، ولا يرى حياة او حيوية الا في المخالفة والمعارضة والمغايرة .. ايقوم الحفر الا على التكامل المتنوع وجوهره اختلاف الحرف وتفرق الاهواء وتقاطع المصالح ، كما يقوم الكلام على منطق اختلاف الرأي ..

لا يعزي الانسان الا الانسان ..
ولا يسلي الانسان الا الانسان ..
ولا يحيي الانسان الا الانسان ..

فكيف بي لو اطال الله عمري فوق هذه الجزيرة وعشت

خمسين عاما او ستين عاما هنا .. اياما متشابهة متكررة طويلة كثيرة .. قطيعا لا آخر له من الايام لا يميز احدها عن الاخرين شيء ؟!

افزعني هذا الخاطر فحزمت امري على ان افر من هذه الجزيرة ، ان افر من وحدتي ومن وحشتي ومن جحيم تكرار ايامي .. وان اسعى الى بلاد الناس ، وان كان في ذلك هلاكي !

في الصباح لبست كل ملابسي . ودعت كوخي ونظرت مليا الى رفاقي القرود واختلطت مشاعري وكان قلبي ثقيلا ...

قررت ان ابلغ الطرف القصي للجزيرة وانظر من هناك ان كان ثمة طريق لخلاصي .

مشيت والقرود من حولي ومن خلفي ومن فوقي تتنقل على الاغصان العالية .. يتبعـــونني ويرافقونني ويسبقونني ..

اخترقنا الغابة ، وعبرنا الجداول ، وارتقينا التلال وانحدرنا في الوديان ..

ارتفعت الشمس الى السماء حتى تصببت عرقا ، فحللت عمامتي وادرتها حول وسطي ..

ثم مالت الشمس فاكلت واكلت اصحابي من ثمـــار الغابة ، واستقبلنا النسمات الرطبة التي انعشت عزمي على بلوغ غايتي ..

وفجاة ، رايت من فـوق كل مرتفـــع ذلك الشيء العجيب ..

قبة بيضاء ملساء عملاقة وسط الحشائش .

كلما اقتربت منها تزداد ضخامة فى عينى .. حتى خلت أن قطرها لا يقل عن عرض سفينة صغيرة .

توقفت القرود واجمة واحجمت عن الاقتراب ، فلما استأنفت سيرى سارعت الى ممانعتى وصدى ..

مم يخافون ؟!

درت حولها من بعيد ، والقرود يمنعوننى ، فلم أر فيها منفذا او بابا ..

ولكن فجاة .. اظلمت السماء وعصفت الريح وصكت اذنى صرخة رمتنى على الارض ، بينما فرت القرود بين الاشجار وهى تصيح :

نظرت الى السماء ، فما راعنى الا رخ هائل يصفق بجناحيه وقد حجب نور الشمس ، ويهبط متهاديا ليستقر فوق القبة البيضاء .. ففطنت الى انها بيضته ، وأنه قد آب الى عشه آخر النهار ..

ضم الطائر العملاق جناحيه وتراخى وهدأ ..

قفز الى ذهنى خاطر جنونى ..

اندفعت نحو الرخ فما استطاعت القردة ان توقفنى أو أن تلاحقنى ، واخرسها الخوف فلم ترد عن همهمة واجفة خائفة ..

ارتقيت اصبع الرخ ودسست راسى فى الرقب المحيط برجله وتحسست النتوءات بين الاصابع حتى وجدت موضعا لجسمى فيها ، فحللت عمامتى واوثقت جسدى باصبع الرخ ، وتمنيت على الله أن يطير العملاق بى الى موضع يكون طريقى الى بلادى ..

قضيت الليل يقظا اسمع نداءات خافتة ترسلها القردة ، مغموسة في اللوعة والحسرة .. الا انني فكرت أن مخيلتي ربما هي التي أضفت عليها هذا الجرس الحزين ، وعزوت ذلك الى خوفي انا مما قد يصيبني .. فاني اعلم ان القردة قد نسيتني وستعود الى سيرتها الاولى بمجرد ان اغادر الجزيرة . الطبيعة لا ذاكرة لها .

انتزعتني من خواطري حركة مفاجئة كادت تخلع اعضائي ، فاذا انا في الجو .. وصرخة الرخ تشق اجواز الفضاء .. والجزيرة كلها بما فيها من اشجار وقرود وجداول وتلال تتضاءل بسرعة خاطفة وتنجرف مبتعدة في المسافات السحيقة .

الريش ينشره على وجهي الهواء فيملأ انفاسي برائحته النفاذة ولونه الداكن .

تشبثت بموضعي والريح تكاد تخلعني ..

نظرت من حولي .. سماء فوقها سماء ، ومن تحتي البحر يتسع اتساعا كلما شق الرخ الفضاء ..

داهمنا فجاة جبل شاهق ، ارتفع فوقه الرخ حتى رايت سنه المدبب ..

ثم انحدرنا في واد سحيق ..

رايت الارض تنطلق نحوي بسرعة خاطفة كاني اسقط من حالق ، فادركت ان الرخ يتهيأ للهبوط ..

أعددت ذهني للحظة الخطيرة .. ولكن وهجا بهر بصري ، وتعاكست البروق فاعمتني عن الرؤية ، ولمحت بين ومضات البريق العجيب راس افعى كاشرة تقترب ، فقدرت أنها ربما كانت مقصد الرخ وخفت لقاءهما المميت

وانا بينهما ، وقدرت أن ذلك اللقاء المخوف سيتم على الارض التي لا ارى لها معالم فتهيات لفك رباطي والفوز بنفسي منهما معا .. فما ان دفع الرخ راسه نحو عنق الافعي ودفعت الافعي انيابها نحو رأس الرخ ، حللت الرباط ورميت بنفسي فارتطمت بأحجار أوجعتني وانقلبت لارى الافعي العملاقة في منقار الرخ تتلوى بعنف وهـو صاعد بها في اجواز الفضاء ..

تحسست الحجر من حولي ، مايزال برقه يخطف بصري فدق قلبي بعنف وهتفت :

ـ ماس ! .. الماس !.. وادي الماس !..

جمعت في كفي حفان من الحصوات الصغيرة فارتعد جسدي كله من الهلع حيث اني علمت مما يتواتر مـن الاحاديث اني ان كنت حقا بوادي الماس فهنا تسـكن اشرس الافاعي واضخمها ، وان الوادي ليس الا حفرة في جبل لا سبيل الى الدخول اليها او الخروج منها ..

تلفت حوالي .. لا اسمع غير خشخشات وفحيـح الافاعي ، ولا ارى شيئا يتحرك غيرها ، فجمدت جمود الحجر ، حيث اعلم أن الافاعي لا تهاجم الا مايتحرك ، وحبست انفاسي في ذلك المكان ارقب من حولي تلك الوحوش الضارية العملاقة في حركتها الكسول بين برق الماس الخاطف ..

انا المفلس الضائع ، رماني قدري الساخر الطـائش فوق هذه الثروة الطـائلة ، في ذلك الوادي المهلك ليتخاطفني الهلع والعجب من نفسي ومن العالم .

تلفت حولي بحذر ، ورايت احاطة الجدار الصـخري

بالجب الذى رمانى فيه الرخ ، بين الماس والافاعى ، ومن أعماقى افلتت صرخة رجعها الوادى السحيق !

ياعبد الله .. الناس تسعى سعى المستميت الى الثروة وتتهالك على المال ، ويضفرون من الثراء والموت اقوالا سائرة .. فيقولون أفوز بالثراء او اهلك دونه ، يقولون اللهم اغننى قبل أن اموت ، يقولون هلكت فى جمع ثروتى ، يقولون المال يحيى لا يميت ، ويقولون الفقر المميت .. ولكن من الناس يتخيل الثروة فى الموت او الموت فى الثروة او الموت والثروة كالشىء الواحد .. بعد طول المسعى : قبر من الماس ؟!

وهل كانت الثروة التى لا مزيد عليها ، والهلاك الماحق الا غاية المسعى وآخر النضال وجائزة النصب والعرق والدموع ونهاية كل دروب الشوك ؟!

وهاقد وصلت ياعبد الله الى الغاية .. حد الخطر والبقعة الحرجة .. قبر الماس ، فاذا انت الساعة اعظم الاثرياء ثراء واشد الهالكين هلاكا ..

فافرح ماشاء لك الفرح ، او اغرق فى الهلع كما ينبغى الهلع ..

لم يصبنى الفرح ولم يغرقنى الهلع ، فى تلك اللحظة الرهيبة ، كما جمدت اعضائى انطفأت نفسى واظلمت روحى وأصاب عقلى الشلل ولم أعد أعى الا بعيون جاحظة ثابتة .. برق الماس يتقاطع مع برق عيون الافاعى القاتلة !

كنت كالمغشى عليه .. حين رأيت فجاة شيئا يسقط

من حالق ..

تلفت على رغمي فرايت قطعة لحم طرى من ذبيحة لا يزال دمها لزجا ..

انقض عليها نسر قوى فشالها من الارض الى الفضاء قبل ان تدركه الحيات ، والماسات التصقت بها للزوجتها وتلمع فى الجو ..

حط النسر على اعلى الصخرة واختفى عن ناظرى فى ضجيج مبهم ..

قلت : لا يكون هذا الا من فعل البشر !.

سقطت قطعة لحم اخرى ..

فحزمت امرى على الفور !

اخذت اجمع على عجل بعض حصى الماس فى جيوبى وصدرى .. فما ان سقطت قطعة لحم ثالثة حتى جريت نحوها ورقدت تحتها واوثقتها مع جسدى بعمامتى وقبل ان افرغ من ذلك أفزعنى هجوم النسر فوقى حيث انشب اظافره فى قطعة اللحم ورفعنى ، وغشيت لترنحى فى الجو تحت جسده وهو ينظر فى عينى عجبا ودهشة من عجبى ودهشتى وفزعى .

حط النسر بحمله فوق الصخرة فاذا دوى طبول وضجيج يصم الآذان وصيحات وجلبة جعلت الطير العملاق يجفل ويتراجع ..

وحولى انا والطير عشرات الرماح المصوبة وصيحات الحرب المدوية وهجوم الرجال .. فخفت أن يصيبونى

مع النسر فقفزت واقفا أصيح ..

توقف الرماة برهة ، ثم انقضوا على برماحهم صائحين الشيطان !

فصرخت في وجوههم : لا أله الا الله ! ..

ورفعت ذراعى كالمستسلم ، وسقطت ماسات من ملابسى حولى ، وطار النسر ناجيا بنفسه من بيننا .

الفصل الخامس :

الظمأ

ـ خذوا ما معى ولا تقتلونى !

صرخت ، وافرغت جيوبى ونثرت تحت اعينهم ماساتى .. فتوقفوا عن الهجوم مشدوهين .. وقال كبيرهم بلسان عربى :

ـ من تكون ايها الشيطان ؟!

ـ لست شيطانا ولا عفريتا . انا تاجر عربى قادم من البصرة .

تصايحوا بلسانهم بينما قال كبيرهم :

ـ تاجر ؟.. وعربى ؟.. من البصرة ؟!.. فكيف وصلت هنا ؟

ـ حملنى الطير وانا متعلق بقطعة اللحم التي رميتموها فى وادى الماس .

ـ وكيف وصلت الى وادى الماس وليس له مدخل او مخرج ؟

ـ تعلقت باصبع الرخ الذى سافر بى فى الجو .. ولما هبط الى وادى الماس ليلتقط احد الثعابين خفت من لقائهما فانفلت منه الى الارض .

ـ واين عثرت على الرخ وكيف تعلقت باصبعه ؟

ـ وجدته فى جزيرة القرود ..

ـ وكيف وصلت الى جزيرة القرود ؟

ـ سقطت من سفينة عربية ونجاني الله من الغرق حيث كان فى العمر بقية فرماني تيار البحر على الجزيرة .

همهم الجميع غير مصدقين ، وقال كبيرهم :

ـ شيء يصعب تصديقه . أما لسانه فعربى ، ولكن سفره اربع سفرات مستحيلة ونجاته من الموت اربع مرات .. فى جملة عربية واحدة ، لا يستقيم فى النحو او فى الصرف كما يقولون فى لغتهم ، فضلا عن نجاته من وادى الماس الذى لم نعلم ان احدا سقط فيه ونجا من افتراس الافاعى . فتشوه .

تقدم الى تفتيشى ثلاثة رجال فما وجدوا على جسدى غير الماسات .

قالوا بلسانهم : ليس معه سلاح .

فتنهد كبيرهم وقال : وهو اعجب مافى قصته . ما اسمك ؟

ـ عبد الله بن عثمان . انا تاجر عربى من بغداد . كنت مسافرا بتجارة فى البحر وغرقت ، فنجانى الله ..

وتخافتت الاصوات من حولى وشعرت ان القوم يتمايلون بغرابة ، وسألنى صوت بعيد غريب :

ـ مابك ؟

فوجدتنى على ركبتى خائر القوى متهالكا اقول :

ـ الجوع والظمأ والخوف ..

ثم غبت عن الدنيا .

افقت فألفيت نفسي راقدا في فراش وثير ، بخيمة هندية باذخة .. فاول ما احسست به ملامسة جسدى لحرير الفراش فتقلبت عليه ملتذا .

اكلت وشربت .. والهنود يتطلفون بى ، فلما شعرت بارتداد روحي أعدوا لي حماما ساخنا واستعرت موسى لاحلق لحيتى التى طالت مع الايام . فلما رأونى حليقا وهم جميعا ملتحون ضاروا يتفكهون معي ..

في المساء قعد معي كبيرهم يسامرني بعد العشاء ، فعلمت منه أنهم جماعة من تجار الهند يأتون الى وادى الماس فيذبحون الشاة ويقطعون لحمها ويلقونه طريا فى الوادى ليلتصق به حصى الماس وتاتى النسور فتلتقطه وتحمله الى الجبل حتى تاكله بمنأى عن خطر الافاعى .. فيهجم التجار على النسور حتى تجفل وتترك فريستها بما فيها من ماس .. فيحملونه الى مدينتهم ..

ـ غدا نرحل ونعود الى بلادنا ونقدمك للملك وتحكى له حكايتك وسترى منه الخير .

فى الغد حملت ماساتى وركبت فرسا مثل فرس كبيرهم وتبعتنا البغال بالاحمال وقضينا اياما فى السفر نشق طريقا وعرا فى الجبل وبين شقوق الصخر .. اما ليالينا فقضيناها فى الخيام والسمر ..

فلما انقضت بضعة ايام اشرفنا على المدينة من الجبل واشار كبيرهم بأصبعه .. فرأيت المدينة بيضاء يتوسطها قصر تتفرع من حوله الشوارع الفسيحة والساحات الواسعة .

ولكن استغرق طريقنا اليها اياما اخرى ، فلما ادركنا الوادي لحظت ان بقاعه مجرى نهر كبير ، الا انه جاف تماما ، وقد تشققت ارضه فاصابتني وحشة وداخلني خوف .

قال كبيرهم :

ـ لم تمطر السماء هذا العام فوق الجبال العالية فجف النهر وقتلت ملوحة الارض البذور .. سترى مدينة عامرة مشيدة .. عليها سمات الثراء ، الا انها هالكة من الجوع .

توقفنا بعد عبور النهر الجاف امام سيل من البشر النازحين من النواحى لا تكاد تسترهم ملابس ، ويحملون اليسير من المتاع ، متجهين مثلنا صوب المدينة .

سألت صاحبى : اين هم ذاهبون ؟

قال : اما اثرياء الريف فقد اغلقوا بيوتهم من دونهم . وعندهم ما خزنوه من طعام وماء ، واما هؤلاء الفلاحين الفقراء ، بعد ان ماتت الزراعة ، فهم يسعون الى المدينة التماسا للصدقات . ووجودهم بها شر مستطير لا يعرف عاقبته غير الآلهة .. وسترى منهم من يحتضرون فى الطرقات وقد فقدوا القدرة على الحركة .. نجانا الله ممن لا يزال به رمق !

وباشارة من كبيرهم اقتحم حراس القافلة جمهور النازحين يضربون الناس بالسياط ويكشرون لهم عن الانياب ويسبونهم .. ليشقوا لنا عنوة طريقا فى الزحام .. وجموع النازحين تنفرج ساخطين لاعنين .. لتمر من بينهم قافلتنا المحملة بالثروات .

دخلنا المدينة من بوابة ضخمة عليها حرس ، واخترقنا ساحة البوابة ودلفنا في طرق ضيقة ومن حولنا تطولنا وتصيبنا اللعنات .. حتى وصلنا الى ساحة القصر ، فتناهى الينا دوى طبول قوية .

ترجل صاحبى وترجلت مثله .. وتقدمنا بين حشد الناس في الساحة ، ونظرت فرأيت موكبا ملكيا غاية في الغرابة :

في صدر الموكب فيل مكسو بالذهب والجواهر ، عليه مظلة قوائمها سبائك ذهبية مجفتة بالفضة ومرصعة بالجوهر .. وتحت المظلة على الفيل شيخ مهيب ملتحى .. لا تستر جسده غير اسمال بالية متهرئة لا تصلح الا كسوة لشحاذ !

حول الشحاذ العجيب ، فوق الجياد المطهمة ، المزينة بالمعادن والجواهر حفنة من الرجال في أسمال الشحاذين !

وحول الكوكبة العجيبة رجال القصر والكبراء في ملابس مزركشة غالية مكتملة الزينة بعقود الجواهر والخواتم والحلى الثمينة .

وأمامهم وخلفهم وحولهم فرسان الجيش في الثياب الزاهية ، يرفعون الرايات الملونة فوق الرماح .

وخلفهم جميعا ، وأمامهم فرق من نافخي الابواق وضاربي الطبول فوق صهوات الجياد يحدثون في الموكب الحاشد جرس الهيبة والنظام ..

وعلى جانبي الطريق احتشدت جموع غفيرة من الناس والفقراء يكررون الركوع والسجود في حركة منتظمة

ويهتفون بلغتهم :

ــ راجا .. رآجا .. اعطنا الماء .. اعطنا الماء ..

قلت لصاحبي وانا اشير للشحاذ فوق الفيل الذى انعقد له الموكب الجليل : من هو ؟

فدفعني للسجود مع الساجدين وهو يقول : الملك !

فما ملكت من دهشتي الا أن اطل من الزحام اختلس النظر الى رثاثته العجيبة فى المشهد الباذج المفقود واهتف من ذهولى : سبحان الله !

فما أرى الا اصبع الملك يشير نحو عيني ذاتها اشارة قوية ، فخرج فارسان من صف الحرس والتقطاني من بين الحشد كالفرارة ورمياني بانشوطة حول عنقي ، فتعلق صاحبي بالحبل يريد استخلاصي من الجند فضربه أحد الفارسين بالسوط رماه على وجهه صارخا .. وسحبني الفارس الاخر من عنقي بالحبل كالبهيم ، وانا متعلــق بذلك الحبل بيدى اخشى الاختناق ، حتى وصل بى الى فيل الملك فعلق طرف الحبل بحلقة فى السرج ، ومشيت هكذا مع الموكب مرتعد الفرائض وانا فى انكر حــال ، تصك اذنى صيحات الجماهير تتحشرج بالجوع والعطش، بالشر والحنق ، وبالامتثال المنذر :

ــ راجا .. راجا .. اعطنا الماء ! ..

فما هانت على نفسي وانهمرت دموعي على رغمي مــن شعورى بالذلة والخوف وقلت : لا حـول ولا قوة الا بالله .. كلما نجوت من مصيبة اقع فى اكبر منها ..

وكان اخشى ما اخشاه ان يغشى على من الالم والحنق

والحزن فيسحلني الفيل ويشنقني الحبل .

***

توقف الموكب امام المعبد . استقبل الكهنة الملك ودخلوا حوله من الباب الكبير .. والعساكر تتخاطفني وتدفعني الى داخل المبنى من باب ضيق صغير . فالفيت نفسي في غرفة ضيقة رطبة يقف فيها على حراستي جنديان بالسلاح .

راقبتهما بحذر وحيرة ، فنظر الى احدهما وقال بلسان عربي تشوبه عجمة :

ـ ان كان لك حظ تمطر السماء .

قلت : وأى شان لى انا بمطر السماء ؟

قال : اعلم ان البلاد ظامئة ، وتقام اليوم هنا صلاة للاله سبقا . لهذا جاء الملك المعبد يتوسل للاله في ثياب الشحاذين . وكل رجل غريب يدخل المدينة اليوم ياخذون فالهم عليه .. ان امطرت السماء بعد الصلاة اكرموه ، وان لم تمطر قصوا رقبته . انت الغريب الذى دخل المدينة اليوم ..

خفق قلبى بشدة وقلت لنفسى :

ـ يارب المقادير .. اى يوم قدرت لى ان ادخل مدينة المجانين !

فلما رآنى الجندى آهمهم قال : نعم نعم .. هذا وقت الصلاة ، تمنى على الهك ان تمطر سماؤنا اليوم .

فاشتعل حنقى بوقود اليأس وقلت مجاهرا :

ـ اللهم اهلك هذه البلاد بالظمأ .. حتى يقتل كبيرهم

صغيرهم ، ويفتك صغيرهم بكبيرهم . اللهم اقتلهم بغبائهم ان لم يفتك بهم ظمأهم .. فان قتلهم الناس الابرياء بخرافات الفأل والتطير شر لاتعرفه قردة الغابات ؛ ولا يستحقون معه الحياة ! ..

ضربني الحارس على راسي حتى شجها وسال دمي .. فما تحسست راسي ورايت دمي على يدي حتى اشفقت على نفسي وركعت على ركبتي أصلي ، وقلت من خلال دموعي :

ـ ربي . اتمنى عليك أن تعيدني الى بلادي .. فوالله ان لؤم الصحاب وجشع الدائنين اقل خطراً من افاعي وادي الماس ، وان فراق الحبيب اقل الما من فراق الوطن والناس ، وان الاستماع الى حكايات الرخ لا يخلع القلب كركوبه ، والشحاذة في أسواق بغداد اليق بالمرء واسلم من اخذ الفأل عليه وقتله لان السحاب لم يجد بالمطر .. اتمنى عليك اللهم ان ترسل السماء سيولا على هذه البلاد حتى أري وطني قبل الهلاك وأعيش فيه أفقر الفقراء ..

قيد الجندي يدي خلف ظهري ، وربط القيد بالحبل حول عنقي حتى صرت مكوما كالفرارة ثم دفعني بغلظة فمشيت منحنيا وعبرنا ممرا ضيقا ودخلنا ساحة المعبد حيث أوقفوني في موضع ، فما حملتني ركبتاي ، فقعدت على رغمي اتلفت وجلا .

في صحن المعبد كان تمثال مقام من الذهب الخالص لشخص جالس له عدة أذرع والكهنة يلوحون اليه بالمباخر ذات الرائحة الثقيلة الطيبة ، وقد أوقدت حوله الشموع .

وحول التمثال جمهرة من الناس يطوفون به ملوحين بالاذرع متمايلين يمنة ويسرة وهم ينشدون بلسانهم ، والكهنة يقودون الغناء ويلهجون باسم الههم : سيفا ..

اظنهم كانوا ينشدون ما يعني ان الجفاف وحش يمتص الماء ، وهلاك ينفث الهلاك ..

واثناء الغناء شقت الجمع فتاة مدهونة بدهان أبيض كالملح وهي في اتم زينة وجمال ومدججة بالسلاح ومدرعة بدرع ثقيل .. رقصت رقصة المهاجم ، فتظاهر النـاس بالخوف منها والتراجع أمامها .

والملك بين حاشيته في أسماله البالية على منصـــة خاصة في جانب القاعة .. وفي كامل السلاح .. تقدم الكاهن وخاطب الملك بقوله :

ــ ملكة الملح ظامئة . التهمت الاشجار والرجال . ملكة الملح جائعة ، تطلب المزيد من الزرع والناس ..

فصاح الملك على هيئة التشخيص والايهام :

ــ اطلقوا السهام !

فانهمرت سهام لينة على الفتاة تكسرت على درعها وهي ترقص وتتقيها . فصاح الملك :

ــ أضربوها بالسيوف .

فتكسرت سيوفهم اللينة على درعها ..

وتعالى الانشاد والهرج واشتدت الحمية وانا مذهول مذعور في موضعي ومازال الحبل في عنقي حتى تقدم الكاهن الكبير من الملك وخاطبه قائلا :

ــ ياملك الزمان وسيد العصر والاوان .. لا يهلك الوحش الا بالماء .. أرمه بالماء !

فأخذ الملك من حزامه قارورة بحجم الكف ، وفعلت حاشيته مثله ، ورموا الراقصة بما في القوارير من الماء، فوقعت على الارض بهيئة من يحتضر ، فكأنهم قد رموها بالنار او بالصواعق .. بينما تعالى هتاف الجمهور على دق الطبول ، واخللت جموعهم رعدة فصاروا ينشدون ..

ــ مزيدا من الماء ! أخلطوا بالماء الدماء !

فجرجرني الحراس في صحن المعبد ، والراقصة ماتزال تتلوى بهيئة المحتضر ، ورموني جنبها فتقدم الملك وقرا على راسي قوله :

ــ جئتنا أيها الغريب في غير ميعاد ، فان كنت زائر خير فارمها بما جئتنا به من الماء ، وان كنت زائر شؤم فانثر عليها من دمك ما يقتل شؤمها ويعكر بياض ملحها ..

والناس يصيحون معه :

ــ الماء .. الماء ..

ووقف السياف على راسي ينتظر الاشارة من الملك ، فاغمضت عيني وقلت اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله .. وغبت عن ضجيجهم وعجيجهم لحظة لافكر فيمن بيده الموت والحياة ، فردني الى ما انا فيه صمت مفاجيء ، وانقطاع صياحهم !.. ففتحت عيني فوجدتهم في أماكنهم مبهوتين كأن على رءوسهم الطير ، يتطلعون جميعا الى سقف القاعة ، فتطلعت مثلهم فلم ار شيئا .. ولكني سمعت قصفة رعد مدوية من خلال انهمار المطر كالسيل ..

ثم دبت فيهم الحياة فجأة ، وانفرط نظامهم واختلط حابلهم بنابلهم ، وتسابقوا خارجين من الابواب ومن الشبابيك وقد استخفهم الطرب فلم يعبأوا بالملك او ينظروا له .. وداسوا على جسدى المسجى والذى كانوا قد هيأوه للذبح ، وقد اخذت اتملص بين ارجلهم محاولا التخلص مما انا فيه .. وانا فى الحقيقة مثلهم او اشدهم نشوة بالحياة وتخليطا فى الفهم او فى الوهم !

داهمنى يقين بأن الله ما ارسل المطر لهؤلاء القوم المجانين الا لينقذ حياتى من ايديهم المتجنية .. فما اعجب مايتوهم الانسان فى الشدة ، وما اعجب مايتمناه !..

دخل صاحبى يبحث عنى وخلصنى مما انا فيه واخذنى من الحراس الى بيته وارقدنى على فراشه وصار يسقينى ويلاطفنى ويهدىء روعى .

***

مرت الايام وصاحبى الهندى يلاطفنى ويفرجنى على المدينة التى عمها الفرح واستقامت احوالها وفتحت اسواقها ...

وفى المساء كان ينادمنى ويعرفنى الى اصدقائه وضيوفه ...

الا اننى ظللت اجد غرابة ووحشة ويروعنى ما الم بى بهذه المدينة اللعينة ..

وكنت اعجب ان تلك الوحوش التى كادت تفتك بى ذات يوم على مذبح الخرافة والوهم .. ماهم الا رجال ونساء

على غاية من الدماثة وهدوء الطبع ورقة الحاشية وكرم المعاملة ..

ولكن ذلك لم يساعدني على الائتناس بهم ، وزادني وحشة ونفرة منهم ، ولعل السبب أن المـــرء لا يانس المتناقضات ولا يألف الاضداد في الشيء الواحد او في الرجل الواحد .

فمع اني خالطتهم وعاملتهم ومازحتهم .. فاني لبثت بينهم قلقا باغترابي يغلبني الحذر والتحفظ ، والمـرارة مما فعلوا معي .

***

بعد ايام دعاني الملك الى مقابلته .

ذهبنا الى القصر انا وصاحبي الهندي فاكرم الملك استقبالنا وسالني عن سفري فحكيت له حكايتي ..

عجب الملك من نجاتي من جميع المخاطر التي تعرضت لها ، ثم قال لي :

ــ يا ابن العرب . لقد اخذنا فالنا عليك وكنا على وشك الفتك بك . ولعلك غاضب منـــا لذلك ، ولكننا سنرضيك بما ينسيك أننا روعناك .

ثم صفق بيديه فدخل الخدم بصندوق فتحه الملك امامي فرأيته مليئا بالجواهر والحلى النفيسة بما يقدر بثروة طائلة فلم املك نفسي من الطرب .

وكل من كان حاضرا من الوزراء والامراء قدم لي بدوره هدية ثمينة .

فوالله ماكنت احسب في يوم من الايام اني احوز كل

هذه الجواهر والنفائس التى اهديت لى فى تلك الساعة .. فضلا عن الماسات التى جمعتها من وادى الماس اللعين !!

قامت القاعة امامى فى غشاء من دموعى ، وقلت لنفسى وانا جالس هناك : ياعبد الله . . هل آن للحظ أن ينفخ فى ابواقك ، وهل تصدقك الايام المقبلة بمثل ما كذ بتك الايام الماضية ، وهل يطيب عيشى بعد الشقاء وارى بلادى بعد طول السفر ؟ ...

اقتحم الملك على خواطرى بقوله :

ـ يا عبد الله .. كان فى مدينتنا كاتب عربى وليناه الميناء .. وقد مات . فهل تحب ان تقوم بالخدمة مكانه ؟

قلت : نعم يامولاى ..

قال : عليك كلما دخلت الميناء سفينة ان تحصى ماعليها من السلع وتستادى اصحابها المكوس حسب القواعد وتعلمنا بذلك . . وقد وهبناك دار العربى ورواتبه . فلعل هذا يجعلك تحب بلادنا وتطيل اقامتك بها حيث اننا استبشرنا بقدومك ونريد ان نستبقيك ونريك من بلادنا مايعجبك ويمتعك .

وصفق الملك بيديه ، وهو يقول :

ـ هل رايت فى حياتك صنعة اليوجيه ؟

قلت : لا يامولاى .

فتقدم الى وسط القاعة رجلان قعدا القرفصاء امامنا يغنيان بصوت خافت عميق ، ثم هتف احدهما فجأة :

ـ ها ...

وصار جسده يرتفع فى الهواء وساقاه منعقدتان كما هما وكأنه قاعد على الهواء بكل راحة .. فلما رايت الفراغ بين جسده وبين الارض يتسع غامت الدنيا فى عينى واحسست برعدة سرت فى أوصالى وتباعدت الاصوات فى أذنى ، وادركنى من بعيد صوت الملك يقول : ماذا بك ؟!

نفتحت عينين ثقيلتين ووجدت الناس من حولى ينظرون الى بعجب ؛ فقلت : عذرا ، فقد داهمنى ذعر مفاجىء ..

فضحكوا وتراجعوا الى مواقعهم والملك يقول :

ـ عجبا ! انت ركبت اصبع الرخ فى الهواء ، ونزلت وادى الافاعى .. غرقت فى البحر وعاشرت القرود ، ومع ذلك تخلع قلبك حيلة روحية بسيطة كهذه ؟!

قلت : المرء يخاف ما لايعرف ومالا يفهم يامولاى .

قال الملك : واذا كنت ستخاف مالا تعرف فكيف ستواجه مفاجئات الطبيعة وأطوار البشر ، وكيف تواجه مالا تستطيع قياسه بالحواس ومالا بد لك من أن تفحصه بالعقل .. ومع ذلك فالمرء لا يعرف كل شيء ويريد أن يعرف كل شيء ولن يغنيك جهل او معرفة عن ضرورة الشجاعة والثبات للفحص . تذكر يابنى حكمة ملك عجوز اختبر الحياة .

****

انتقلت الى دار العربى فهاجنى الشوق الى بلادى ، وصرت اتنقل بين قاعاتها وأتلمس بيدى زخارف الجدران ووجدت بالدار مصحفا اخذته بين كفى وقبلته معتزا .

ووجدت كتبا عربية قلبتها بشغف ..

كنت اقعد بين الكتب ساعات متصلة اقرا حروف لغتى ودموعى تنهمر ..

ثم اخرج الى المرفأ اقعد ساعات اخرى وانا أتطلع الى البحر لا يجالسنى فيها غير الامل .

الى ان كنت يوما فى بيتى اقرا فسمعت من يصيح : سفينة !

فكنت فى الميناء بدفاترى فى أستقبالها مع جمهرة من التجار والشغالين والفضوليين .

الفصل السادس :

بغداد .. بغداد

وصلت الى مقعدى فى الميناء ودخل على تجار السفينة فوجدتهم عربا من البصرة فاستبشرت بهم وقدمت لهم المشروبات واجلست القبطان بجوارى وانصرفت لعملى ..

اخذ الحمالون يقدمون الى المتاجر ، وانا احصيها واثمن سلعها واقدر مكوسها حتى فرغت من ذلك ، فقدم لى القبطان ثلاثة اكياس ، وضعها الحمالون امامى وقال القبطان :

ـ سيدى . هذا متجر لراكب كان معنا وغرق فى البحر ، ونريد أن نبيعه ونأخذ ثمنه الى أهله بمدينة بغداد دار السلام .

نظرت الى الاكياس فما صدقت عينى ..

ـ هذا الراكب ما اسمه ؟

ـ اسمه عبد الله بن عثمان وهو تاجر من بغداد .

حملقت فى القبطان وهتفت :

ـ لا اله الا الله .. كيف لم اعرفك للوهلة الاولى وكيف لم تعرفنى . انظر الى ياريس ودقق النظر ، فانى انا عبد الله بن عثمان ..

ازور القبطان وقال : مابقى لاحد ذمة فى هذا الزمان ..

قلت : لا تصدقنى ؟!

قال : لانك سمعت منى أن صاحب المتجر غرق فى البحر .. تريد ان تأخذ ماله بغير حق ؟!

قلت : انظر الى وجهى !

قال دون ان يعبأ بصراخي :

ـ حرام عليك وانت مسلم .. الرجل غرق امام عيوننا فكيف يبعث حيا على بعد ألف فرسخ ..

ـ اسمع الى دعواى !

ـ ساشكوك للملك نفسه ، فهذا المال فى ذمتى ولست ابالى فى حماية حق الفريق .

ـ كلما طلبت منك التريث تزداد سفاهة . بينى وبينك البرهان ..

ـ اى برهان ؟

ـ اقول لك ما بالمتجر من السلع بالتفصيل واسماء الشهود ، واحكي لك مادار بينى وبينك فوق السفينة من حديث يوم غشيت واعطيتنى المسحوق المذوب فى الماء ..

ـ اتزعم انك انت ..

ـ اقدم لك البرهان امام الشهود ، وامام ضميرك انك سألتنى مادعاك لركوب البحر فقلت لك : بعت قلبى بوجبة طعام وسرقنى اللصوص ورأيت لؤم الصحاب ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ركبت البحر .. وانت قلت

لى ان البحر ليس مركب اليائس ، وستقع فى غرامه بعد حين ..

ــ فليحضر كل من شهد غرق الرجل ..

صاح القبطان وتجمع ركاب وبحارة السفينة .

قلت : ولما غطس الحوت وسمعتك تامر بتحريك الدفة لتدور السفينة وتدركنى .. جرفنى البحر بعيــدا من السفينة واشرفت على الغرق ، لولا ان السقالة كانت قد سقطت فى البحر أثناء تزاحم الركاب عليها وجرفها الماء فادركتنى .. وجعلها الله سببا لنجاتى ..

صاح القبطان :

ــ يا اهل الله . اشهد أنه هو الرجل ، فهل يشــهد معى أحد ليحق لنا تسليمه ماله ..

فكل من كان حاضرا شهد بانى انا عبد الله بن عثمان ، وارتمينا فى أحضان بعضنا البعض غير مصـــدقين ، وانهمرت دموعى ودموعهم ، وتفرست فى وجوههـــم وتفرسوا فى وجهى .. وقال القبطان :

ــ ماذا فعل بك الزمان ياعبد الله فتغير وجهك ولم يعد ذلك الوجه الصبى البرىء الرخى الذى رأيناه فى البصرة ..

ذهبنا جميعا لمقابلة الملك ، وروينا له ماجرى فعجب جدا مما سمعه واستأذنته فى السفر مع رفاقى فاذن لى بعد الحاح ..

لم افترق عن رفاقى منذ تلك الساعة ، فلما جاء وقت الرحيل ودعت الملك ، وودعت صاحبى الهندى فاهدانى

غير مانلت من الهدايا وركبنا متجهين الي البصرة وانا غير مصدق نعمة الله علي بالعودة ..

في طريق العودة بعنا واشترينا في كل ميناء نزلنا فيه .. حتي وصلنا البصرة فانفصلت عن رفاق سفري واسترحت في خان جابر استروح نسمات بلادي واشنف آذاني بسماع احاديث قومي وإجراس لغتي ..

***

احصيت ماتجمع لي من الثروة في رحلتي فوجدتها اكثر مما ورثته من ابي فحمدت الله انه عوضني عما ضاع مني وزاده لي .

الحت علي فكرة ان اشتري داري ذاتها بحارة الكرخ ببغداد ومنيت نفسي ان تمكنت من الحصول عليها ان يعود لي هنائي واسترد سعادتي .. فأرسلت رسولا سبقني الى بغداد لشرائها بالثمن الذي يطلبه فيها مالكها ، وسرعان ماجاءني خبر منه انه وفق في شرائها ، واعدادها لاستقبالي . فحزمت أمتعتي وثروأتي ومتجري واكتريت في قافلة وصلت بي الى بغداد ذات صباح ميمون .

شاع نبأ وصولي بغداد ، ومقامي بداري في سوق المدينة فاضطرب اصحابي وندمائي الذين غدروا بي حين افلست قبل سفري وانكروني وتسابقوا الى شراء أمتعتي بالثمن البخس حين عرضها الدائنون في المزاد ..

خف بعضهم الى بعض ، ونقل بعضهم الى بعض مااعتراهم من القلق والتوجس ، وتناقلوا أنباء الثروة

التى كسبتها فى رحلتى وعدت بها الى بغداد وبعضهم يزايد البعض فى تصديق ماتواتر من مبالغات وخرافات حول مقدارها .. حتى قال اسعد الحريرى ؟

ـ لابد انه منتقم منا ..

فسأله يونس الزجاج :

ـ كيف يمكنه ايذاءنا ؟

ـ انت ابله ؟! نحن تجار صغار وهو قادر بتلك الثروة الطائلة التى عاد بها ان يفلسنا .

فقال الحسنى ابن شيخ السوق :

ـ ابى هرم ورغب فى اعتزال وظيفتـــه ، ولو اراد عبد الله فربما عينوه شيخا للسوق .

وقال الخيام :

ـ جاء اليوم الذى كنت اخشاه !

فاشار عليهم على ابن الشهبندر :

ـ لابد ان نسترضيه .

فسأل يونس الزجاج :

ـ وما الذى عساه يرضيه ؟

فقال اسعد الحريرى بحزم :

ـ نعيد له كل ما اشتريناه من متاعه وجواهره .. هدية .

هتف اسماعيل البصرى منكرا :

ـ هدية ؟!

ـ لا يعز عليك ماعندك ، فالذي عندي اعــز منه واغلى .

ـ وما عندك انت ؟

ـ جاريته « حياة » . . كنت اشتريتها من السوق .

ولكن الآخرين وافقوا على مضض وقالوا :

ـ ماتقول .

فقال اسعد :

ـ نرسل الهدايا مع الرسل ، وننتظر دعــوته فنصالحه .

هكذا طرق رسلهم بابى ، ومعهم الحمالون .

قالوا لمن فتح الباب :

ـ قل للسيد نحن رسل من قبل اعز اصدقائه . . فلان وفلان وفلان . . ومعنا هدايا له .

كنت قاعدا مع الدلالين في القاعة . . فدعوتهم .

دخلوا وضعوا احمالهم وسلموا واخذوا يشيرون الواحد بعد الآخر الى الاكياس وينبئون عما بها من اشــياء ويصفونها ويريدون الكشف عنها .

أشرت لهم بيدي ليتوقفوا ، وقد عرفت انهم يهدونني اشيائي التي اشتروها من المزاد . .

لهانت على اشياء اشتهوها وهي عندي ، وما هانت على نفسي . .

عجبت ان جراح الامس فغرت افواهها فجاة . . كان للاشياء ظل قاتم اشاع بنفسي الحسرة والغضب .

لا تموت الجريمة الا بالعقاب . .

وبعض الجرائم لا تقوم اركانها ولا يتسنى معهـــا العقاب .

قلت للدلالين امام الرسل :

ـ هذه الاحمال خذوها للسوق ، وبيعوها كمـــا تشاءون ، وارسلوا ثمنها لشيخ المسجد .. وبلغوه ان يتصدق بالمال عنى للفقراء والغرباء .

فوجدت الرسل وجموا ، وعدوها اساءة لا تليق ، وانتظروا منى كلمة شكر أو دعوة للزيارة ، فما فعلت الا ان اشرت لهم بالانصراف .. فمشوا الى الباب متباطئين ثم التفت لى أحدهم وقال :

ـ والجارية ؟

ـ اية جارية ؟

ـ هي واقفة بالباب ، ومعها وثيقة اهدائها لك ، فافعل ماتشاء !

ومضوا ، وانا فى اثرهم للباب ..

رأيت « حياة » ..

هاهي ياعبد الله ، مغمضة العينـــين مستسلمة ، ما احست بوجودى حتى نظرت الى نظرة مستطلعة مليئة بالسؤال .

خذلني جسدى فلم اعد اقوى على الخطو نحوها ، ولكن روحى كانت قد صحت .. متمردة منتقمة ..

تعصف برجل عجز عن الانتقام !

لبثنا هكذا وقتا .. وكل منا ينظر للآخر .

والذى كان يجيش بنفسي يعز على الوصف والتقصى ، واذا أنا بجر متلاطم فيه الحسرات ، ونوازع الكبرياء ، والعزم على رفض إبتلاع الملح .

ولو ضعفت لها .. فقد ضعفت لتملق الظالمين لضعفى ، وتملقهم ايام الطيش فى صباى .. وقد ضعفت لجرائمهم كلها ، ولخستهم تلك الايام المريرة التى مرت بغير عقاب ..

لو استقبلتها باحضانى اليوم .. فقد خذلت حسراتى واوجاع روحى كلها واستسلمت لقضاء شرهم الذى لم استطع رده او دفعه تلك الايام .

لو استسلمت لشوقى وحبى .. فقد استسلمت لسخرية الظالمين الذى نهشوا ايام صباى وبراءة أملى وصدق نيتى واخلاص مودتى نهش ضباع الفلوات وذئاب الخرائب ..

اما عبد الله الذى كان ، فقد مات ..

واما عبد الله الذى أريد .. فانه يأبى الضعف للماضى او النكوص والارتداد . .

قلت لها :

ـ لم يعد يصلح لنا اليوم ياحياة ماكان يصلح لنا بالامس ..

فارتعشت جفونها وقالت :

ـ ماتريد ياسيدى .

قلت !!

ـ لست سيدك . انت حرة لوجـــه الله ، فافعلى ماتشائين ..

قالت : ماتقول ياسيدى

قلت : خذى بعض المال ..

قالت : شكرا ياسيدى ..

واستدارت ومشت وانا واقف تعصف بى المشاعر ..

يعلم الله كم بكيت « حياة » قبل ذلك اليوم ، وكم مس عقلى الهوس بها حتى رأيتها فى غربتى راى العين ، وسمعت غناءها بالاذن ، وكم اضنانى الشوق لها فى كل مكان حللت به ..

ولكننى عزمت ذلك اليوم ان اتخلص من هذا كله ، وان ابرا من كل ضعف أو حاجة ، وان احيا قويا كالعاصفة او كموج البحر .. لا احسب لغير قوتى حسابا ..

تلك اللحظة راح صباى بضعفه وبطيشه .. فلا وداع ولا تأسى .. انما ضاع مالا أريد ، وبقيت لى ارادتى .

***

ذهبت للقاضى وسجلت وثيقة عتقى لحياة وارسلت وراءها الرسل ببعض المال فأبت ، وما عبأت لذلك .

انصرفت الى بيع متجرى ولقاء التجار والتنزه فى بلادى والاستمتاع بثروتى .

كنت أدعو التجار والدلالين احيانا الى بيتى ونقضى السهرة فى تبادل التلطف والمجاملة . ولكن حذرى كان يمنعنى من الافراط فى التودد الى الناس ، او التبسط فى العلاقات .

لم يعد لى أصدقاء !

فالمرء لا يجدد الصداقات كما يجدد اثاث بيته .. وقد علمتنى الحياة الاحتياط .

أأنا وحيد ؟

لست وحيداً كما كنت فى جزيرة القرود ، ولا اشعر بما عانيت من الوحشة او ألنفرة فى بلاد الهند ..

انني بين قومي وفي بلادي وعندى من المال ما يكفل لى طيب الحياة ومباهج الدنيا ..

كنت يوما عند الشيخ مصطفى صديق ابى وكنا نتحدث فى سائر الشئون حين الح على بالسؤال عن احوالى ، فقلت له :

ـ لقد عدت أحسن مما كنت تاجرا وثريا ، ولكن لم تعد لى بهجتى .

قال الشيخ :

ـ أو تتذمر ؟!

قلت : اعجب انى اشتقت للبحر . واينما نظرت ياعمى لا ارى غير صورة البحر وصخب البحر وهدوء البحر !

قال : لا تبغض الناس ياولدى لتقع فى غرام البحر . لا تبغض ماتعلم لتحب مالا تعلم ..

قلت له : ومن ذا الذى يملك هوى قلبه ؟

قال لى : وعلى المرء الا يطيع بالضرورة هوى قلبه ..

تذكرت ساعتها لغير سبب أعلمه ، انى كنت امشى مع

« جابر » صاحب خان البصرة على الشاطىء قبيل المغرب فمررنا برجل يغني للبحر وحده ، فى خلوة ، وامتلأت نفسي آنذاك بأغنيته ، وملأت نفسي ثانية وانا قاعد عند الشيخ مصطفى بغير سبب أو علاقة .. فشردت وانا انصت كأن الرجل حاضر معنا تلك الساعة يرسل صوتا كله شجون :

تائه الاقدار حائر
فعلى البر مهاجر
وعلى البحر مسافر
أين فى الدنيا الشواطىء
أين فى الدنيا المرافىء
كيف بالله يثابر
تائه الاقدار حائر ؟

وفجاة افقت ، فضحكت من نفسي .. ولم يعرف الشيخ مصطفى لماذا اضحك ، ولكنه ضاحكني متلطفا .

الفصل السابع :

عجوز البحر

كنت قد تعلمت اسوأ درس يمكن ان يتعلمه الانسان .. وهو الا يثق في الاصدقاء !

درس مؤلم .. افرغ حياتي من كل بهجة ، واورثني مشاعر الوحدة والوحشة والاغتراب في مسقط راسي وفي عقر بيتي !

اغتال الدرس الاليم سعادتي ..
بعت بضاعتي واغلقت دكاكيني
واشتريت متجرا وتوجهت الى البصرة .. فاكتريت على سفينة مليحة واستقبلت البحر .

قضيت اياما اسامر رفاق السفر من التجار والبحارة، وأسمع غناءهم واسمعهم غنائي .. حتى انس لى شيخ من التجار اسمه عبد الرحمن النعمان ، وصار يخصني بعطفه ونصائحه .

فذات يوم كنا نفطر في عنبر الركاب والسفينة تتقلب في بحر مضطرب ، فداهمتنا صيحة من فوق السطح :

ـ الريح تدفعنا للوراء !..

وصار هرج ، وحاول بعض التجار الصعود الى السطح لاستطلاع الأمر فمنعهم البحارة ..

علا صفير الريح واخذت السفينة تترنح بعنف، وللبحاره صياح فوق رءوسنا .

« لا حول ولا قوة الا بالله » . . قال الشيخ عبدالرحمن النعمان ، ووضع يده فوق كتفى ، وكانت يده ترتعش .

علا صوت القبطان فوق رءوسنا . :

ـ حطوا الشراع الكبير !

ثم صارت همهمة غير مبينة اعقبها صياح القبطان : « اقطع بالسكين ! »

ففهمت ان شدة الريح لم تمكن البحارة من انزال الشراع وانهم يزمعون شقه بالسكاكين .

ولكن امرا صدر من القبطان خلع فؤادى :

ـ الحبال للغرقى !

فعلمت ان الريح اكتسحت بعض البحارة ورمتهم فى البحر ، فتذكرت غرقى ، واخذتنى غيبة ، لم افق الا والشيخ النعمان يهزنى ويقول :

ـ ياولدى . انت اصبانا واقوانا ساعداً ، وربما كتب الله لك النجاة من دونى ، فهل تصنع المعروف لوجه الله تعالى ؟

قلت وانا شبه غائب :

ـ نعم ياعم . اصنع المعروف .

فدفع الى الشيخ بجلد كاغط ملفوف وقال :

ـ هذه وصيتى ، وفيها مالى عند الناس وما على من مال لهم ، وما يجب ان يصنع القاضى بثروتى بعد قضاء الله . فهل تحملها عنى ؟ واذا كتب الله لك النجاة

تدفعها الى قاضي البصرة ولك الاجر والثواب عن أولادى وعيالى وعنى ؟
قلت : نعم ياعم .
ودسستها فى حزامى . وصكت آذاننا صرخة : الصخور !
ثم ارتجت السفينة وسمعنا لاخشابها قعقعة ، وسقط بعضنا على وجهه بينما صاح القبطان : العشارى ! نظموا الركاب !
فعلمت أنهم سينزلون « العشارى » قوارب النجاة ، فغلبنى اليأس بحيث صاح البحارة من فجوة المدخل للعنبر :
ـ كبار السن اولا . عشرة رجال فقط !
امتنع البعض عن الخروج وتشبثوا بمتاعهم :
ـ ماذا أفعل بنجاتى ان ضاع مالى ؟!
وتعالى الصياح : فداكم المال يارجال !
فأيقنت انى آخر من سيصل الى قوارب النجاة بحيث انى اصغر الركاب سنا ، فما أدرى الا وقد اندفعت فى طيش من بين ايدى البحارة فبلغت السطح وقفزت الى الماء كمن يفر من حريق دون أن يحتسب عاقبة الفرار .
ايقظتنى برودة الماء ، فانتبهت لحالى غاية الانتباه ، ولاحظت ان حولى فى الماء رجالا مثلى يصارعون الموج ، بينما السفينة تتأرجح فوق البحر كالريشة فى مهب الريح .
فى بحر متلاطم ممتد من الافق الى الافق ... ينهار

الانسان ان يولى وجهه . ولكنى عرفت مما نمي الى سمعى مما يقوله أهل التجربة ان افضل مايصنعه الانسان في مثل هذه المحنة ان يبتعد عن السفينة الغارقة التى تثير من حولها الدوامات .

وهذه كانت وجهتي وماقصدت اليه .

اوليت ظهرى للسفينة ، وضربت الماء بذراعى ، ولم اعد أرى غير امواج كالجبال ترفعنى ثم تخفضنى فى هوة البحر .. واحسست أن الماء يجرفنى حتى لم أعد املك قوة على دفع تياره ، فاستسلمت لدفعه التقط انفاسي ولا ألوى على شيء .

ولما اظلمت الدنيا حولى يئست من نجاتى ولعنت طيشى وناجيت نفسي :

ـ ياعبد الله . غامرت بنفسك .. فلماذا ؟.. ان شعورك بالوحدة وبالاغتراب وضيقك بالناس لم يكن الا فضول ترف وغرور وغطرسة . لم تتعلم من محنتك التواضع والرضى والقناعة والقبول بما قسم لك الله . فحتى تنكر الاصحاب ولومك اياهم ليسا الا علاقة .

والانسان يحيا بالعلاقة سلبا او ايجابا ، اما الانقطاع فموت وضياع .. اين منك الان اصحاب يجحدون او يعطفون !.. لو انك كنت تخليت عن كبرك واحتضنت « حياة » وغفرت للصحاب وتعلمت كيف تمشى على الارض !..

ارتعد جسدى بحيث أحسست أن قدمى لامستا الارض !

لا احلم ولا أتوهم .. هى الارض !

وقفت بقدمي الاثنتين ونظرت حولى فرأيت ظلالا داكنة قصدتها كمن يطين ، فاذا أنا فوق الشاطىء جوعـان عطشان منهوك القوى فرقدت ، وتمرغت فى الرمـال وقبلتها وغمرتها بدموعي فأحسست بهدوء يغمـرنى .. ونمت .

***

استيقظت والشمس مشرقة .

تحسست جسدى فوجدت أعضائى سليمة .

خلعت قميصي واحسست بكاغط الوصـيـة ثابتا فى حزامى . كنت نشوأن بنجاتى :

ــ لابد لى من الماء ..

توغلت فى حرش أمامى ، وارتقيت فـرع شـجرة ونظرت حولى فلمحت نبعا يلمع ماؤه فى ضياء الشمس فقصدته فرحا واتكببت عليه أعب الماء .

ــ لا تعب الماء وانت عطشان فتموت ..

رجل يكلمنى . نظرت خلفى ، ورأيته ..

عجوز راقد على الارض ، ينظر الى بعينين قويتـين تقيسانني ولا تطرفان ...

قلت : السلام عليكم ياشيخ . من انت ؟

فازور عنى ممتعضا يهمهم : فضولى !

قلت : لا تؤاخذنى ياعم .. فانا كنت فى سـفينة غرقت فى هذه النواحي ونجانى الله ، ولا اعلم ما هـذه الجزيرة او مايكون أهلها .

رماني بنظرة صارمة : وثرثار ايضا !

اضحكني عناده فقلت : لا اقصد مضايقتك . ولكن ماسبب قعودك فى هذا المكان ؟

قال : لانى لا اقوى على القفز هنا وهناك مثلك .

قلت : لا بأس عليك . اتطلب شيئا اقضيه لك ؟

قال : وهل انت من اصحاب المروءة ؟

قلت : نعم . انا من اصحاب المروءة .

قال : فاحملنى على كتفيك حتى أستطيع ان اقطف بعض ثمار الشجر اتبلغ بها .

قلت : حبا وكرامة .

ورفعته حتى أقعدته على كتفى ، فلف ساقيه حول وسطى بقوة فكانه كتفنى تكتيفا ، وصار يأمرنى بفلظة ، ويرفق أوامره بدفعات من قدميه فى جنبى ، وهو يجذب شعرى .

ـ هناك . اسرع ..

فلما آلمتنى دفعات قدميه نفد صبرى ، وقلت له : رويدك يارجل . سأقضى لك ماتطلبه ، ولكن لا تدفعنى ولا تتعجل .

وهو يقول : لا تتذمر ! هناك .. اسرع ..

ويلتقط الثمار من فوق الشجر ويلتهمها بشراهة حتى تسيل عصارتها فوق راسى ، وهو لايزال يأمرنى ويزجرنى ويدفعنى .. حتى تعبت ، فقلت له :

ـ كفاك . لقد تعبت .. فانزل على مهلك .

فنزع العجوز عودا رفيعا من شجرة فى متناول يده

وساطني به بقسوة وهو يصيح :

ــ تعبت يابن اللئام ؟!

فملت مغضبا حتى اسقطه من فوقي :

ــ انزل ياسفيه !

فاخذ يسوطني وقد شدد ساقيه حول وسطي حتى ضاق نفسي ، وكاد يغشى على من الالم والاختناق فملت بجذعي فوجدتني سقطت على الارض وهو فوق راسي يضغط بساقيه على عنقي ويسوطني بلا رحمة !

ــ قم حالا والا قتلتك !

فلم استطع التملص من ساقيه وكدت اختنق وتزهق روحي فهتفت :

ــ من انت ايها الشيطان ؟!

قال العجوز بصوت خطير :

ــ الآن عرفتني .

فخلع الرعب قلبي . وساطني حتي قمت صاغرا ، وهو فوقي قابض على جسمي بساقيه فقال :

ــ الان تعرف كيف تخدم سيدك . ان عصيتني افقأ عينيك باظافري ، اخنقك بساقي حتى ينقطع نفسك . اسوطك حتى تجن من الالم .. ولا خلاص لك . فافعل ماتؤمر به .. افعله بسرعة وبهمة . هيا .. اجري ، ادخل بين الاشجار . تمهل هنا .. لا تقف . اندفع نحو البحر حتى اشم هواءه ، نحو البحر .. آه .. ما ارق النسيم هنا . اريد ان اغفو قليلا . ارقد ...

كادت تتقطع انفاسي من الجري هنا وهناك ، ولكني

حين رقدت طمعت فى الخلاص ان راح فى غفوة .. قال لى وهو يتثاءب :

ــ نعم . ستتعلم أشياء كثيرة مع الوقت ؛ ولكن اياك والخبث .. فانى لك بالمرصاد .

تركته برهة حتى ظننت انه نام فحاولت التملص من قبضة ساقيه ، فصحا من فوره وساطنى ..

ــ هيا قم . انا استرحت واكتفيت . الى الاشجار .. اسرع ..

تعبت حتى سقطت على ركبتى من الانهاك ، ولكن الم السياط اقامنى واقفا ، اجرى هنا وهناك ، وهو يأكل بشراهة .. وخواطرى تقول :

ــ لعنة الله على الشفقة . اردت ان اصنع خيرا فانقلب شرا على .

صاح العجوز وهو يسوطنى :

ــ تتذمر يابن اللئام ؟! ندمت حيث اشفقت على ، وانقلب خيرك شرا عليك ؟! اعلم انى قادر على قراءة خواطرك ، فلا تعارضنى أو تشتمنى حتى فى خواطرك !

قلت : سبحان الله !

قال : تذكر الله يابن العصاة ؟!..

وساطنى حتى التهب جسدى بالآلام مبرحة ..

ظللت أياما أتدهور فى مراتب الشقاء ، اعمل حتى تنخلع اعضائى من التعب ، وأجرى هنا وهناك ، ليأكل .. ليتنزه .. بنيت له بيتا بالاغصان . اوقدت له

النار وطهوت له الطعام ، وهو فوقى يزجرنى ويسوطنى ويعذبنى ويشتمنى ...

فمرة كنت انزهه على شاطىء البحر ، وكان النسيم رطبا وقد نال منى التعب .. فنظرت مليا الى البحر ، وتذكرت اوطانى وايامى .. فانهمرت دموعى واجهشت بالبكاء .

قال : تبكى ؟.. هذا افضل لك . سترتاح بعد البكاء مرتين أو ثلاثة .. فدموعك ستستل من قلبك شوكة الكبر والغطرسة ، وهى مايوجعك فى الحقيقة .. وعندئذ ستخضع ، وتألف ما أنت فيه ، وتجد الراحة فى طاعتى ، وتتمنى رضائى .. من الآن لا تخاطبنى الا بسيدى أنا سيدك ، أفهمت ؟ تنادينى سيدى .. سمعت ..

قلت : نعم ..

قال : نعم ياسيدى !..

وسألنى ، أفقلت ؟

ـ نعم ياسيدى .

فرمى سوطه وقال :

ـ الآن لن احتاج معك للسوط .. وستتعلم أيضا ان كل طعام تأكله ، وكل راحة تنالها .. هى من فضلى ومن كرمى عليك .. وستألف أن تقول لى ألفاظ الشكر والعرفان والخضوع الصادق من القلب .. هيا ياعبد النحس .. الى البيت ..

قلت : نعم ..

قال : نعم ياسيدي !
فقلت : نعم ياسيدي .

****

مرة لاحظني العجوز وانا اثبت في حزامي الكاغط الوصية ، وكنت اخشى سقوطه ، فصاح بي :
ـ ماهذا الذي في حزامك ؟ سلاح ؟!
ـ لا . هذا كاغط وفيه وصية ..
ـ ارني ..
فاعطيته له ، وصار يقرأ منه ..
ـ « وعلى للحاج عبد الصمد القماش اربعة آلاف وخمسون فضة .. ولي عند الجواهري سبعة الاف .. » ما هذا ؟
ـ وصية رجل غرق واعطانيها لاسلمها لاهله ..
فرماها مشمئزاً ..
ـ أنتم أيها السفهاء .. الرجل غرق وأكلته حيتان البحر ، ويرسل من قاع الماء يطالب دائنيه .. تعساً لعقولكم !

***

احمد الله أن شقائي لم يكسر شوكة كبريائي ، ولا دموعي أغرقت شعوري بالتمرد ، وان أخفيت شعوري خوف العقاب . مضت الايام والاسابيع .. لم يتوقف عذابي ، وبرحت بي الآلام حتى خشيت من الجنون والهوس او الموت كمدا ..
فمرة ، وانا انزهه على شاطىء البحر رأيت جرة فارغة لعلها سقطت من سفينة في البحر فأخذتها وحملتها معي

وهو فوقى ، حتى اذا صرنا تحت اشجار العنب صرت أقطف عناقيده واعصرها فى الجرة . فتعجب العجوز مما أفعله وسألنى فقلت !..

ـ أصنع شرابا طيبا لأشربه بعد تخميره .

قلت لنفسي : لعل الخمر أن تعيننى على احتمال شقائى ..

دفنت الجرة فى مكان رطب وتركتها مدة ، ثم رجعت اليها أذوقها فوجدتها قد اختمرت .

سألنى : ما طعمه ؟

قلت : مليح ياسيدى ، يقوى القلب ويشرح الخاطر

قال : اشرب انت اولا لارى أن كان مليحا حقا

فشربت حتى سكرت ...

طارت تعاستى وتملكتنى نشوة وتبددت مخاوفى وراقت الدنيا بعينى .. فما ملكت نفسي وغنيت فى الفضاء الرحب :

ضاع الزمان فلا تضع

وقع الرجاء فلا تقع

فصاح العجوز :

ـ ماهذا الهذر ؟

قلت : سيدى . هذا سحر الخمر ونشوته ..

قال : دعنى أذوقها ..

واختطف الجرة من يدى وامالها على فمه فصحت به :

ـ رويدك واحسها قليلا قليلا ..

استغرب طعمها أول الامر ، ولكن حين سرت بحميتها بجسده صار يعبها بنهمه المعتاد ، وانا أهتف به :

ـ لا تفرغها جميعها . دع بعضها لي .

افرغها كلها في جوفه وصاح وهو يتلعثم :

ـ غننا لعنة الله عليك ..

فغنيت له :

* أغرق همومك في العنب
وارقص على وقع التعب
ضاع الزمان فلا تضع
وقع الرجاء فلا تقع
واضحك كأنك تحتمل
وانس الزمان وما حمل

وجعل يضحك ويترنح من فوقي فأكاد اسقط على الارض وأصيح به ، وهو يصيح ويهتز يريد أن يرقص ويحاول الغناء معي ، وانا اغني له ..

احسست قبضة ساقيه على عنقي تتخلخل ، وصوته يخفت .. فعلمت انه اغرق في السكر وانحلت قواه .. فتجاسرت ورميته من فوقي فسقط على الارض يتخبط .. وهم بالنهوض وهو ينظر لي بعينين تقدحان بالشرر فالتقطت الجرة وعاجلته بها على رأسه فتفجرت دماؤه وانتفض ، ثم سكنت حركته .

فما صدقت والله اني خلصت من شره ، فصرت ادق راسه الميت باحجار الجرة المهشمة حتى تناثرت دماؤه على جسدي كله مفزعة مقززة .. وأنا أصرخ صراخا

لا اعرف ان كان مصدره الرعب ام السعادة بالخلاص ام الخوف من ان أراه يهب واقفا بمعجزة !

جريت الى البحر ورميت نفسي في موجه أغتسل من دماه ، واتلفت حولي وقد اضطربت ظهر لبطن ..

وحملني الجنون اليه ثانية ارجمه بالحجارة واركله بالقدمين واهيل عليه التراب وابصق عليه واشتمه ..

فلما وهنت قواى ، قعدت على الارض اتأمل نفسي واقول .

ـ ياعبد الله .. القسوة اذاقتك الدم ، فصرت قادرا على القتل وسفك الدماء .. آه لبراءة الصبا والشباب ، ووداعا لها ..

وما افظع الحياة !

وبكيت من فرط اضطرابي .

ومن خلال دموعي رأيت صورة متقطعة لسفينة في البحر ..

مسحت عيني ونظرت ..

هي سفينة بلا شك ، مالم تكن حلما يهلوس به عقلي الطائر شعاعا .

خلعت ردائي وانا اجري الى الماء ، وصرت الوح بالثوب وانا اصيح :

ـ هوهوهوهو .. يا أهل الله .. غريق يا اهل الله .. هوهوهوهو ..

والفضاء يرجع أصداء صيحاتي .

لا .. انها صيحات البحارة فوق السفينة تهتف لي

وعدها بالنجاة : هوهوهوهو ..

شاهدت البحارة ينزلون قاربا الى البحر وانا اتقافز في المياه الضحلة استعجلهم الوصول الى الشاطىء واصيح من فرط اضطرابي .

ـ نجاني الله ! يا اهل الله ! .. هوهوهو .

رسا القارب على مسافة مني وهبط منه الى الماء بحاران كل منهما شاهر سيفه ووقفا بعيدا عني واحدهما يصيح : قف عندك . لا تقترب .

وقال الثاني : لا تتحرك واجب . من انت وما تفعل هنا ؟

فوقعت على ركبتي في الماء من الخوف ..

ـ انا عربي . تاجر من بغداد . اسمي السندباد . كنت على سفينة غرقت في هذه النواحي . الله نجاني . انا عربي . تاجر أسمي السندباد . غرقت سفينتي .

فقاطعني البحار : معك احد ؟

فقلت : ليس معي احد ..

ـ معك سلاح ؟

ـ ليس معي شيء !

ـ تقدم ببطء .. سنرى ما شأنك وما اتي بك الى هذا المكان .

الفصل الثامن :

الوصية

انتشلتني السفينة ، واجتمع حولي التجار والبحارة يسألونني .. ومهما قلت لهم من حكاياتي لايصدقونني .

ظنوا أن الوهم خالط عقلي مما لقيته من أهوال البر والبحر ، فأشفقوا بي وصاروا يهزون لي رءوسهم متظاهرين بالتصديق ، وهم لا يصدقون .

تصدقوا على بالطعام وبقميص ..

ووصلت السفينة بريح مساعد الى البصرة .

المرفأ هو هو .. عامر بالزينات وصاخب بالاحتفالات فرحة الاستقبال للتجار والبحارة ، وأفراح العائدين الى الاوطان لم تذهب مابقلبي من وحشة وحسرة .. فها أنا أعود الى وطني فقيرا شريدا خاوى الوفاض !

ضاع مالي كله في البحر .. وفوقه ضاعت أيامي وخلاني ومرح الصبا وبراءته وآماله الحلوة .

اشق طريقي كخيط أسود حزين في نسيج منشور من البهجة والسعادة .

مشيت بقلب كسير .. أجتاز الضحكات والتبركات والعاب الحواة وغناء المنشدين وطبول الطبالين .. وانا لا املك حبس دموعي ..

توقيت المرور بالسوق وبخان جابر ، حتى لا يراني

من يعرفنى رثا كالشحاذ .

عطفت على حارة أعرفها ، وتلمست طريقى فى السكك المتعرجة المعتمة الى ضريح « سيدى الغريق » .

هنا يرقد ولى من أولياء الله غرق فى البحر وصار ضريحه عزاء للثكالى والارامل والايتام وضائعى الامل .. يقصدونه للتبرك والدعاء .

زاحمت النساء المتسربلات بالسواد ، والرجال من مشوهى البحر .. ممن فقد ساقا او ذراعا او نور العينين .. يتزاحمون على الضريح يدعون الله ويطلبون الشفاعة .

امهات مايزلن يأملن عودة الابناء ويبكون ..

اطفال يلعبون ويبولون ويتشاجرون فلا تهدىء من مصيبتهم الا الصفعات والركلات .

وشحاذون يطوفون بتلك البراكين الملهوفة يتسقطون الصدقات .

بينما الذباب والهوام تنسج سحابة سوداء تظلل المشهد الكئيب .

هنا شر البحر .. كما أن خير البحر يتلألأ الآن فى سوق البيع والشراء ، وفى الخانات والحانات ودور اللهو والقصف والغناء .

قعدت جنب الضريح فى الهرج المحزون ، وصيحات التفجع من حولى تشق القلب وتثير مواجع نفسى فتطفر من عينى الدموع .

ـ انت التاجر عبد الله عثمان المسمى بالسندباد وتسكن حارة الكرخ ببغداد ؟

صوت آمر .

رفعت عيني فوجدت ثلاثة رجال من شرطة الوالي ، ورئيسهم يسألني . فوقع الخوف على سائر الاحزان حتى لم أملك ان أنكر نفسي .

ــ نعم . أنا هو .

ــ قم . . فالقاضي يطلبك .

فقلت مروعا : ولماذا يطلبني القاضي ؟

ــ عنده شيخ يطلبك . وكلما رست سفينة في المرفأ أرسلنا نسأل أن كان من ركابها من يدعى عبد الله عثمان السندباد .

ــ ولماذا يطلبني الشيخ ؟

قال أحد الشرطة : اما لدين او نفقة طلاق . لماذا تظن الشيخ يطلب مثلك . قم .

جذبوني من ذراعي وشقوا بي السوق ، وكل من مررنا به يسأل : لص أم رافضي ؟!

فيقول الشرطة : لا نعلم . القاضي يطلبه :

ويقول الناس : لا حول ولا قوة الا بالله !

وإنغوص قلبي في جوفي وتخذلني ركبتاي .

رماني الشرطة بين يدي القاضي وهم يقولون :

ــ هذا هو السندباد يامولانا .

قال القاضي : انت الذي حملك الشيخ عبد الرحمن النعمان وصيته على السفينة التي غرقت منذ شهور في عاصفة بالبحر ؟

فرفعت رأسي وسألت بانكار :

ــ ألهذا تقبضون علي ؟

سال القاضي : الوصية معك ؟
فرميتها له مغضبا ، فأخذها القاضي ونشرها بين يديه وقال : بارك الله فيك ياولدى . هل قرأتها ؟
فهدأ روعى ونظرت اليه متسائلا :
ـ لا . لم اقرأها .
فدفعها لى : خذ واقرأ ذيلها .
اخذتها من يديه ، وقرات فى ذيلها : فان اتاكم الشاب الذي عهدت اليه بوصيتى عبد الله عثمان السندباد عملتم بما فيها فله عليكم عشرة آلاف دينار صحيحة جزاء مروءته ووفاء بحق الله » .
رقصت الحروف فى عينى .
قال القاضي : أتعرف الشيخ الذى اعطاك الوصية يا عبد الله ؟
قلت : لاى شيء استحق هذا المال ؟
قال القاضي : اتعرف الرجل القاعد جنبي ؟ أنه الشيخ عبد الرحمن النعمان ياولدى ؟ . . اعرفته ؟
ونهض الشيخ .
تفرست فيه ، فوالله ماكنت سأعرفه لولا أن دلني القاضي عليه .
كم غيرته المحنة ، فكم ياترى غيرتنى المحن ؟!
ارتميت فى ذراعيه المفتوحتين ، وبكيت على صدره كطفل جبر الكبار خاطره المنكسر . . والشيخ يربت على ظهرى ملاطفا ويقول :
ـ ماذا فعل بك الزمان ياولدى . احمد الله على

النجاة ...

وفجأة تذكرت ...

فانتزعت نفسي من بين ذراعي الرجل ، وهتفت بالقاضي :

ــ مولاى القاضي . اما المال فلا استحقه ...

واحتج الشيخ :

ــ زن له الذهب يامولاى القاضي واقض الدين بالشرع ..

صحت : قبل ان تزنوا لي المال لابد ان تحلني ياسيدي القاضي من قسمي . فقد أقسمت على جزيرة الشيطان الا أصنع المعروف فى حياتى لاحد ، والا أجعل سبيلا لاحد علي بالمروءة . اقسمت بالله لا اصنع المعروف .. فلم أعد استحق الجائزة الا أن يحلنى القاضى من قسمى .

فما سمعت فى حياتى أشد اثارة للطرب من كلمات الشيخ وهو يقول :

ــ مازالت براءة الصبا فى قلب هذا الولد بعد كل ماعاناه ... فما اعجب ذلك !

***

عدت الى دارى ببغداد مجبورا ، وقد عوضنى الله عن بضاعتى التى غرقت فى البحر .

سئمت حياة اللهو وصحبة الخلان وليالى الشباب .. ولكنى كنت اتطلع بشوق الى اضياف من المسافرين او الغرباء يطرقون بابى فأدعوهم لتؤنس بحكاياتهم وحدتى ..

فذات مساء أكرمني الله بثلاثة رجال غرباء طرقوا بابي ليبيعونني محارات بحرية نادرة ، فدعوتهم إلى مائدتي وقلبت بضاعتهم فاعجبني غرابة شكل احدى المحارات وصفاء حجرها ، وتساءلت عن مصدرها ، فترددوا في اجابتي بصراحة ، ولكن احدهم قال : ضعها على أذنك لتسمع .

فما فعلت حتى نحيتها سريعا من شدة اضطرابي ، وتضاحك البحارة لفعلي فاعدت وضعها على أذني من خجلي ، فسمعت موسيقى وغناء بلغة لا افهمها اعذب واطرب مما نعرف ونغني ، فكأنها موسيقى السحرة أو الجان فأبعدت المحارة عني وعاد ثلاثتهم للضحك مني .

ـ ماهي ؟

ـ لا تخف فما هي الا موسيقى وغناء عذب .

ـ لم أر مثل هذا الشيء في البحار أبدا ، ولا سمعت عن مثله .

قال احدهم : من جملة جزر البحر الجنوبي جزيرة الحب . . اذا مرت بها سفينة في المساء اضاءت الجزيرة باذن الله ، وتناهت الى البحارة من شاطئها اعذب أغاني الحب فينجذب البحارة للنزول على شاطئها بحيث تتخايل لهم حوريات بديعات يرقصن اجمل رقص ، فمن جرؤ من البحارة على الدخول في حلبة الرقص او لمس الحوريات يتلاشى بلا اثر .

قلت : عجيب . حديثكم عجيب !

فقال الرجل : هو والله الموت عشقا .

سألته : وهذه المحارة من جزيرة الحب ؟

فقال : مامن رجل نزل الجزيرة وعاد حيا ، ولكنها ن بعض الشواطىء القريبة .

فوضعت المحارة على اذني وذهب بى الخيال بعيداً ..

اضفتهم تلك الليلة وناموا عندئ فى القاعة فمـا صحوت الا على صراخ خادمى : سيدى . سيدى !

ـ مابالك ؟

ـ رحل الضيوف بلا اثر .

ـ سرق شيء ؟

فتشنا الدار فوجدنا حوائجنا لم تمسها يد . ولكن ضيوفى تركوا لى المحارة الساحرة ولم يتقاضوا ثمنها ، فعجبت من الامر ولبثت اياما مشغول البال افكر وقد زاد قلقى واضطرابى لسبب لا اعلمه ..

فما انقضت أيام حتى ازمعت السفر ، الى البحر الجنوبى بالذات ..

ان كان ماجرى نداء سحرى ما .. ها انا البى النداء فقد تضاعف بالتدريج ضجرى من القعود فى بيتى ، وشغفى باستطلاع ما سحرنى .

خرجنا على سفينة كبيرة من البصرة ولما توسطنا الماء بريح مساعد عبر فوق الاشرعة سرب من طيور البحر البيضاء تودعنا بتشكيلها البديع ..

ولامر ما ترنح احد الطيور فوق الشراع الكبير واصطدم به صدمة سقط على اثرها فوق سطح المركب يصرخ ، ولما حاول النهوض تعثر وسقط وقد كسرت

ساقه فتعالت صيحته بالشكوى وانقبضت الصدور لصياحه .

قال القبطان : اذبحوه رحمة به !

فهتف بحار عجوز : أعوذ بالله من الشيطان !

قال سيء باريس . ذبحه يجلب الشؤم !

فاحتج القبطان : الرحمة اولى بالمؤمنين من التطير ..

فقال البحار : فليرحمنا الله .

وهجم عليه احد البحارة فذبحه وهو يقرأ اسم الله . وسال دم الطير على السطح ، ثم رمى جثته فى البحر .. ووقف البحارة يرقبون فصاح القبطان : الى العمل ! الى العمل !

وخاضت مركبنا البحر الجنوبى ، وانتقلنا من جزيرة الى جزيرة ، وبعنا واشترينا وربحنا وتحدثنا وضحكنا وحكينا الحكايات .. ولكن شيئاً بقى فى صدورنا من قصة الطير ومن قالها السيء .. شيئا خبأناه بعناية فى حنايا الصدور لا نظهره ، ولكن نضمره فيشى بوجوده ماعم سلوكنا جميعا من صفة الحذر ..

الفصل التاسع :

حرب الطيور

فوصلنا بمشيئة الله الى جزيرة خضراء رسـت السفينة في مياهها وقال القبطان :..

ـ سنتزود من هنا ببعض الفاكهة الطازجة ونبحث عن الماء ، فمن أراد من التجار النزهة على الشـاطىء فليصحب البحارة في القوارب .

وتزاحم جمع من الركاب وأنا من بينهم الى القوارب مع البحارة ، ولما وصلنا الى الجزيرة تفرقنا بين اشجارها مستروحين مستطلعين ، وقد ادهشنا عمق خضرتهـا وارتفاع أشجارها وكثافة النبات فيها .

وبينما انا أتعجب من بذخ الطبيعة ترامى الى سـمعي أصوات بعض رفاق السفر ..

ـ لو كان هذا قصرا .. فأين بابه ؟
ـ لعله بعض قصور الجن .
ـ انه صخرة .. ولكنها ملساء .
ـ سنرى ماتكون .

مشيت اليهم فرأيت آخر المتحدثين يرمي حجراً نحو شيء أبيض عظيم الحجم .. ما ان رأيته حتى صحت في زملائي :

ـ لا تفعلوا يا اهل الله . هذه بيضة الرخ !

وقد تاخرت صيحتى ، ونفذ امر الله وانكسر غلاف البيضة فى موضع سال منه سائلها الاحمر الاصفر ..

كانت البيضة قائمة هائلة بحجم القصر الكبير وسط الادغال ، جريحة تنزف .. وحولها زملاء السفر يحملقون متعجبين .

ـ الان الى الفرار .. الى السفينة .

صحت بينهم ، فاخذهم الروع مثلى ، وتصايحوا مثل صيحتى وتسابقوا نحو الشاطىء وتزاحموا فى القوارب .. قبل أن تظلم السماء . نظرنا فراينا الرخ يحجب عنا الشمس بضخامته ، وقد هبط الى بيضته فلما رأى ثقبها صاح صيحة عظيمة ومال عليها بجناحه يلامسها فى حنان ثم ارتفع يصيح فى غضب وامال عنقه نحونا متوعدا ثم هاجمنا بعنف فالتقط احد التجارة بمنقاره وقذفه فى الفضاء ، فاضطرب شملنا ومن بيده المجداف صار يضرب الماء بجنون ، والاخرون القوا بأنفسهم فى الماء طالبين النجاة .. ومال الرخ بجناحه فضرب أحد القوارب فانقلب على ظهره . ثم ارتفع الرخ فى الجو حتى صغر حجمه وهو يصيح .. ولعله كان يطلب وليفته ، حيث اننا بعد برهة شاهدنا الطائر الآخر مقبلا من ناحية خط الافق يصيح لصيحة رفيقه . فلما اجتمعا فى كبد السماء توجها نحونا منذرين بالشر .

كانت القوارب قد قاربت السفينة ، والسابحون فى الماء يطلبونها بقوة العزم . وعلى السفينة يصيح القبطان فى هرج التجارة والركاب :

ــ ألقوا الحبال للغرقى ..
وتتجاوب صيحاته من نواحي السفينة : الحبال للغرقى .
فترامت الينا اطراف الحبال ، وتسابقنا الى القفز فوق السفينة والقبطان يصيح :
ــ ارفعوا المراسي . ارفع الشراع الكبير .
وتتجاوب أوامره يرددها رؤساء البحارة .
رميت نفسي على سطح السفينة وشعرت بجسمها يرتج كانما خلعته ريح من مرساها .. وصيحة بحار يقول : الرخ قادم !
فنظرت ورأيت الرخ يملأ الفضاء بجسده العملاق المندفع ، وما ان اقترب من السفينة حتى صرخ ، وضرب الصاري بصدره فتمايلت السفينة حتى خلت انها ربما تنقلب . وصاح القبطان : دفة مستقيمة . الى الامام . الى الامام !
فعرفت أن القبطان قرر أن ينزل من بالبحر خلفه ليلقى مصيره !
وكان الرخ الثاني يدور في الهواء فلما واجه مركبنا انقض من عليائه فوقنا . وصاح القبطان :
ــ ادفعوا بالسلاح . كل رجل يدفع بالسلاح .
فانتظمت البحارة والركاب صفوفا شاهرة الرماح والسيوف والخناجر والعصى .. وما أن اقترب جسد الرخ حتى دافعته الاسلحة وانغرس في جسده بعضها وتفجرت من صدره دماء ، ولكنه لم يأبه لذلك واتجه قاصدا القبطان الذي توسط الجمع وانشب في جسده اظافره ورفعه في الجو .. ولكن سرعان ماترنح الرخ ، ورأيناه

يميل يمنة ويسرة مثخنا بالجراح فرمى القبطان ومال نحو الشاطىء . وشاهدنا جسد القبطان يسقط فى البحر بعيدا عن السفينة . فقفز نائبه على الفور الى موقع القائد مكانه .. والناس يتصايحون : سقط الريس . ادركوا الريس ! ..

ولكن نائب القبطان صاح :

ـ الدفة مستقيمة . الى الامام ! واستعدوا بالسلاح .

ولكن أوامره سقطت على آذان اصابها الصمم فجأة ، واجساد غشيها ثبات منذر . وصاح أحد الركاب :

ـ رفاقنا يغرقون . عد أدراجك .

فهتف به نائب القبطان : الى الوراء وأطع !

ولكن فريقا من الركاب لم يمتثلوا وتطايرت همهماتهم : ومن انت حتى تأمر ؟! الريس فى البحر ..

ثم صاح صائحهم : أيها الرجال .. رفاقنا يغرقون !

فصاح نائب القبطان : من عصى أمرى سيقتله رجالى . انا الريس فوق هذه السفينة ..

وصاح أحد التجار : الرجل سيترك الغرقى والقبطان لمصيرهم . الى الخائن !

وهجم على نائب القبطان مع بعض رفاقه بالسلاح ، فأحاط البحارة بريسهم يحملون عنه ، وانذر الموقف بشر مستطير ، والسفينة تبحر مبتعدة بسرعة ، وفريق من أهلها يطوق بالسلاح فريقا مدججا بالسلاح بدوره ..

وفجأة هتف بحار : انه يأتى !

وهتف آخر : اثنان .. ثلاثة !

فصاح نائب القبطان : استعدوا بالنبال ..

ولكن أحد البحارة قال : أنهم يحملون احجارا ...

سيرموننا بالصخور !

وكانت طيور الرخ تحمل في مخالبها احجارا كبيرة .

صاح نائب القبطان : الدفة لليمين ..

واقتربت الطيور ، فصاح : الدفة لليسار ..

وتعرج مسار السفينة ، والطيور تهجم بالاحجار ، والركاب يرشقونها بالسهام ..

سقط في البحر حجر ، ثم حجر آخر ، وارتفع رشاش الماء ليصفع كل امرئ على وجهه ، ثم سقط الحجر الثالث فوق مؤخرة السفينة ، واصاب من اصاب ، واهتزت السفينة هزة عنيفة ، حين اخترق الحجر سطحها وسقط في غرفة الدفة . وصاح بحار : انكسرت ذراع الدفة !

وهتف نائب القبطان : كل رجل في مكانه .. يا اهل الله الثبات . النجارون الى الدفة ..

ومن بعيد كنا نرى طيور الرخ مثخنة بالجراح تترنح في الهواء ، وربما عدلت عن مهاجمتنا ، الا انها استدارت الى الفرقة تفتك بهم في البحر .

ولا يمكن ان اصف في كلمات ما اضطرب في صدور الجميع من مشاعر .. ولكن نائب القبطان كان يعرف مايريد ، وقد قرر الفرار الى عرض البحر ، وكل رجل على السفينة تنازعته نوازع القبول والرفض ، الحزن وطلب النجاة ، النجدة والاحساس بالخيبة .. فمن بكى ومن قرأ من كتاب الله بصوت جهير ومن لبث صامتا بلا حراك ومن قدم يدا لمساعدة البحارة والنجارين والجرحى من الرفاق .

- ولكن القدر كان يحتفظ لنا بصرخة آخيرة قبل ان

تبتعد السفينة عن ميدان المعركة .. فقد اصيب احد الركاب بهياج فجأة وصاح :

ـ ايها الجبناء .. تخليتم عن الرفاق . ليتنى كنت مع الشهداء الغارقين ولا اكون مع الجبناء الفارين !

واندفع الى جانب السفينة ، ولكن نائب القبطان صاح : امسكوه .

فامسكوه

ـ قيدوه ..

فربطوه بحبل متين قيد ذراعيه ورجليه وعيناه تذرفان دمع الغيظ والعجز .

***

ابتعدت السفينة عن الجزيرة ، وانطلقت فى عرض البحر بمن تحمل من رجال وجراح .. فى مسيرة بطيئة مترنحة ، وقد نشط البحارة وريسهم فى احصاء اعطابها واجتهدوا للحفاظ على توازنها وترقيع ماتمزق من اشرعتها ، واصلاح دفتها ..

وفى النهار الثانى صاح بحار : جزيرة !

فاجتمع كل الرجال فوق السطح يستمعون لنائب الريس : يا أهل الله .. لقد أراد الله لنا النجاة بالوصول الى هذه الجزيرة حيث ان اعطاب السفينة تحتاج الى اصلاح كثير ، الان سننزل كلنا الى القوارب ونلبث على الشاطىء أياما .. فى النهار سيتولى البحارة اصلاح العطب ، وفى الليل سنبيت هنا جميعا مدة ايام ..

ونرجو الا يكون بهذه الجزيرة قبائل من اهل الشر او العدوان او المتوحشين ، واطلب أليكم ان تلتزموا رفقتنا دائما على الشاطىء ، والله الحامي .

نزلنا الى الجزيرة في القوارب ، وقد كتلنا الخوف والحذر ، واوقدنا النار وجمعنا ثمارا ورتبنا بالاغصان مايشبه السور من حولنا ، وجلسنا الى الطعام رفقة .. وجرى بيننا حديث متقطع ، خافت يشي بما في نفوسنا من حزن واسى ..

وكنا نرى السفينة جانحة في المياه الضحلة امامنا ، خالية من الناس ، كأنها سفينة للأشباح ، فنحمد الله على النجاة ..

قال نائب القبطان : تجمعوا في موقع واحد يا اهل الله . البحارة يحيطون الموقع بالسلاح للحراسة . وسيتناوبون الحراسة في الليل . واعلموا أن الله قد ربط مصيرنا بهذه السفينة المحطمة . اذا اصبح الصباح سنبدأ علاج أعطابها بالخشب والقطران حتى تصلح للسفر ، فهي وحدها أملنا في العودة الى الاوطان .

ثم مشى حتى تجاوز نطاق الحراسة ، وانتحى جانبا في أحد الاحراش وقعد ، فأدركته لمؤانسته فوجدته يبكي وحده فقلت له متلطفا :

ــ اتبكي ياريس .

فقال : آن أوان البكاء على من خذلناهم من الرجال ، وتركناهم وراءنا في البحر ، ومن بينهم القبطان وهو

اشجع من عرفت من الرجال .

ـ أكان قريبا لك ؟

فرفع الى وجها مبللا بالدموع :

ـ كان عمى .. اخا ابى !

فلما رأى الدهشة والانكار فى عينى قال :

ـ وهو الذى علمنى أن سلامة الركاب أقدس من سلامة البحارة والقبطان .لم يكن امامنا خيار !

وتناهت الينا من بعيد صيحة بحار :

ـ المتوحشون !

الفصل العاشر

المتوحشون

أطل من فوق ربوة قريبة ثلاثة رجال شقر ..

كان بعض الرجال نائمين ، وآخرون يغسلون ثيابهم في البحر ، وبعضهم يتسامر أو يأكل .. فاذا الرءوس كلها تتجه لمصدر الصيحة وتتطلع نحو الغرباء .

قال البحارة : أنهم متوحشون ..

وتبدت أجساد الرجال الثلاثة العارية البهقاء ، ولكنهم كانوا يبتسمون ، بل كانوا يضحكون .

تجمع شمل أهل السفينة ، خلف البحارة والقبطان وتداخلوا في كتلة واحدة حائرة خائفة والقبطان يقول : لا تبدأوهم بعدوان .

وتقدم الغرباء الثلاثة من الجمع ، بينما ظهر من خلف الربوة مزيد من الغرباء ..

تأملناهم وعجبنا من لون بشرتهم الأبيض وشعرهم الأشقر وعيونهم الصافية الزرقاء وعريهم الكامل .

قلت للقبطان همسا : انهم خطرون .

فقال : لا تسبق الحوادث .. فلعلهم أهل ود .

وبادرهم أحد التجار : السلام عليكم يارجال .

ولكنهم ضحكوا ولم يتكلموا . ولعلهم آمنوا جانبنا بعد المفاجاة ، لانهم اقتربوا حتى صاروا بيننا ومدوا

ايديهم يتلمسون ثيابنا بفضول .. ويضحكون .

وقد سرت عدوى الضحك في جمعنا ، واذا بعضنا يبادلهم ضحكا بضحك .. ويخاطبونهم ، الا أن الغرباء لا يتكلمون ، وانما يهمهمون ..

قال قائل : عجبا ، انهم لايتكلمون .
فقال آخر : ليست لهم لغة . ولعلهم ليسوا بشرا .
فقلت : ومايكونون ؟
فقال هائل : الا انهم ظرفاء . .
وقال القبطان : كونوا على حذر ..

الغرباء يسمعون فيضحكون ، ويهمهمون ، ويشيرون بأيديهم نحو أفواههم ويهزون الرءوس بعضهم للبعض ويضحكون .

قال بحار : انهم يدعوننا للطعام .
فقال رجل : لعل عندهم طعاما ساخنا .
وقال آخر : الفرار أدعى للنجاة .

وصاح بحار ثان : ياريس . أننا سنلبث هنا اياما قبل ان نصلح السفينة ، واخشى ان رفضنا دعوتهم او جافيناهم أن يغضبوا وهم كثرة .. ونحن على ارضهم .

فقال تاجر : ولماذا نغضبهم اذا كانوا قد بدأونا بالمعروف ..

وقال الريس : لا نعلم أمرهم بعد ..

وقلت : أذا كانوا لايتكلمون فقد علمنا انهم ليسوا بشرا ، ولم اسمع في حياتي ببشر في هذه النواحي غير قبائل الزنوج والهنود ..

فقال بحار : ياريس فلتختبر قصدهم . سأتظاهر بالفزع واصطنع الفرار ، فان جروا خلفي وامسكوا بي كانوا يريدون بنا شرا وامامكم الخيار . . اما اذا لم يعبأوا بي وخلوني لحالي فهم مسالمون .

فقال الريس : افعل .

وصاح البحار : الفرار يامسلمين . . . الفرار !

وجرى نحو البحر ، ورمى نفسه في الماء ، ولم يتحرك الغرباء ، وانما ازدادوا ضحكا ومرحا وهم يرقبونه في دهشة . .

فقال تاجر : انهم مسالمون ، وهم غير مسلحين .

وكان الغرباء يشيرون بأيديهم الى أفواههم ويضحكون فقال الريس : نقبل دعوتهم للطعام ، ولكن كونوا دائما على حذر ومجتمعين لا يتفرق شملنا ابدا .

ولكنني لم اكن مطمئنا ، ومع انى لا احب مخالفة الجماعة ، فقد حفزنى هاجس قوى لان أقول : انهم ليسوا بشرا ، وهذا ادعى للحذر . .

ولكني مسيت مع جماعتي خلف الغرباء نحو التل حيث احاط بنا كثير منهم ، يلمسون ثيابنا برفق ويضحكون .

بعد التل عبرنا واديا اخضر واخترقنا دغلا كثيفا ثم انتهينا الى ساحة كبيرة حولها تلال وصخور بها فتحات كأنها ابواب بيوت هى في الاصل كهوف في الصخر ، وعلى الابواب أوراق شجر كبيرة جدا يقف امامها نساء يرتدين الزهور واطفال عارين تماما .

فما ان دخل ركبنا الساحة حتى صدرت صيحات من اهل القرية جاوبتها صيحات من رفاقنا الغرباء ، وضحكات تجاوبها ضحكات ..

وما أن اقتربنا من وسط الباحة حتى قال احد التجار : نساؤهم فاتنات ، وما الطف زينة الزهور على أجسادهن ..

وقال بحار : هاهو الملك .

من فتحة احد الكهوف برز رجل مهيب يتفرس فى القادمين . ثم تقدم واهل القرية من خلفه يتجهون نحونا ، فما أن حاذى القبطان فى مقدمتنا حتى سقط أمامه على ركبتيه .. وفعل الغرباء مثله . فقال القبطان : افعلوا كما يفعلون ..

فسقطنا على الركب نحييهم بمثل تحيتهم فضحكوا فى وجوهنا وضحكنا فى وجوههم . وقال الريس : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فما اجابه احد الا بمزيد من الضحكات .

وتقدم الملك فجلس القرفصاء بوسط الساحة وحوله جلس الغرباء ، فجلس القبطان امامه ونحن من حوله :

وشخص الى الساحة رجال بالطبول وقعدوا الى جانب الساحة يدقون عليها دقا لطيفا ، فتقدمت فتيات جميلات مكتسيات بالزهور يرقصن بين القاعدين ... والطبول يتصاعد ايقاعها فيتصاعد ايقاع الرقص حتى وصل هذا وذاك الى ذروة من الانفعال والنشوة اثارت الصيحات من كل جانب . وصاح أحد التجار :

ــ تقولون أنهم متوحشون .. نساؤهم سيجعلوننا متوحشين بعد ساعة زمن ، والله المنجى .

فضحك أهل السفينة ، وضحك الغرباء لضحكنا .. وتآلف الجمع حتى دفع الحماس أحد التجار الى القول : سأهدي الملك .

وقام فقدم له قلادة فقام الملك على ركبتيه وحياه ففعل التاجر مثله ، وصار كل تاجر من رفاقنا يقوم فيهدى الملك ويتبادلان التحية .

الى أن صاح بحار : انظروا .. جاء الطعام .

فنظرنا واذا صف من النساءمقبل علينا وعلى أيديهن اوراق شجر عظيمة كأوراق شجر الموز ، وفوقها طعام سخن لم نتبين عنصره الا أن رائحته ذكية وجذابة ، فوضعوا الطعام امامنا ولم يضعوه امام الملك او اهل الجزيرة فعجبنا من ذلك . وسأل الريس :

ــ لن ياكلوا معنا .

فتتابعت التعليقات :

ــ لعل هذه طريقتهم فى الضيافة .

ــ لعل الطعام مسموم .

ــ أتظنهم يدسون السم لنا وهم يضحكون ؟!

فقلت : يا اهل الله .. هؤلاء قوم لا يتكلمون فأين لنا معرفة مايضمرون ؟

ــ رائحة الطعام رائعة والله .

وقال بحار : لا تقلقوا . انا اذوق لكم الطعام .. ولما اكل قال : طعامهم الذ من نسائهم . وهذه شهادة

صدق لوجه الله ومن صدقنى فلياكل .

وضحك ، فضحك الغرباء .. وضحك رفاقنا ومدوا ايديهم الى الطعام وأكلوا فتصايحوا صيحات الاستحسان ولم يلتفتوا لقولي :

ـ فلينتظر البعض على الاقل ..

واخذتهم النشوة وبانت عليهم شراهة زادت من قلقي وخوفي فلم استمع للريس وهو يقول لي : لذيذ حقا . كل ولا بأس عليك .

فامتنعت .. ودق الطبول صار يصم الاذان ، والراقصات نفرت اقدامهن وصرن يتقافزن كأن بهن مس من الجن ...

اما رفاقي فقد ازدادوا جوعا ، وتتابعت امامهم اطباق الطعام وهم يزدادون نهما واقبالا على الاكل وتتعالى صيحاتهم وضحكاتهم بغرابة . ويبدو ان الطعام كان حارا لانى رأيتهم الواحد بعد الاخر يخلعون ملابسهم قطعة فقطعة ويتصببون عرقا من حرارة اجسادهم ..

احسست بوحدة وخوف .. ولاحظت انهم ينفصلون عني ولا يأبهون بى ، ويقبلون على بعضهم البعض بمودة وحرارة ، ويضحكون ويمزحون ويمدون ايديهم للراقصات بغير حشمة والراقصات يلاطفنهم واهل القرية يضحكون!

أتت النساء بقرعات الشراب فاحتساها القوم بتلذذ وشره ، وطلبوا المزيد .. فجيئ لهم بالمزيد .

رقبت اصحابى وقد زاغت ابصارهم وتفجرت شهواتهم وتعالت صيحاتهم وخلعوا ملابسهم وعربدوا بعضهم على بعض ..

فلما اكتمل عريهم جاءتهم الفتيات بأوراق شجر عليها زيوت ودهانات غريبة ، فصارت كل واحدة تدعك كل واحد من اصحابي ، ظهره وصدره وعنقه وراسه ووجهه فيظهر النشوة ويتصايح تعبيرا عن التلذذ .

ولما كنت في كامل ملابسي لم تقربني الفتيات .. وكل من كان حاضرا من اهل القرية يظهر المرح ويضحك ويصيح ..

ثم قام الملك ، فقام لقيامه اهل الجزيرة وتقدموا جمعنا فتبعناهم برضا ..

قال أحد التجار : طبعا أن اوان الحمام .

وقد ظن أنهم يأخذوننا للحمام .. حيث كانت أجساد رفاقي سخنة .

مضينا خلفهم ورفاقي اسلس قيادا للغرباء من النائم يضحكون ويتصايحون ولكنهم يطيعون حتى وصلنا الى واد به أشجار قصيرة ذات اوراق ، فدعانا أهل الجزيرة لاكل الاوراق وفعلوا قبلنا ففعل رفاقي مثلهم ..

ودهمني رعب زلزل كياني حيث رايت أهل الجزيرة يسوقون رفاقي بالعصي الرفيعة ويوجهونهم .. ورفاقي باجسادهم العارية اللامعة قد صاروا كما تخيلت أكثر امتلاء والادهان تلمع على بشرتهم ، لكن عيونهم أكثر شرودا ..

وكانوا منقادين للغرباء مرحين ضاحكين مقبلين على اكل الاوراق والحشائش بشره . والقبطان معهم وفي مقدمتهم يفعل مثلهم .. فقطعتني الحسرة على نفسي وعلى

رفاقى واقتربت من القبطان الذى كنت منذ ساعات قد اعجبت بشجاعته وحكمته وقلت له :

ـ سيدى . سيقتلوننا !

فنظر الى نظرة من لايفهم وقدم لى حفنة من الاعشاب متلطفا ففزعت منه .

فلما اكل رفاقى ماشاء لهم الغرباء ، وازدادوا ودا وقربا معهم ومع بعضهم البعض حتى تشابكت الاذرع .. ساقونا الى الساحة من جديد حيث رايت انهم قد اشعلوا نارا عظيمة وجاء الملك فجلس وجلسوا من حوله واخذت النساء يرقصن من جديد والشمس تميل مع الغروب .. ثم اقام الرجال حاملا فوق النار .

قام الملك فطاف بضيوفه يتحسس كل منهم ويقيس سمنته والرجال يضحكون له وهو يضحك لهم .. حتى اختار اسمنهم واقتاده برفق نحو النار والرجل منقاد له يضحك ، وزملاؤه يضحكون ..

قفزت من الهلع على قدمى وصحت بأعلى صوتى : النجدة يا اهل الله ، سيقتلونه !

فما وجدت من رفاقى غير وجوه باشة ضاحكة ، ومن الغرباء غير ضحكات لطيفة وعيون تستطلعنى ما اقول .

جحظت عيناى وانا ارقب رفيقى والغرباء يقيـــدون قدميه ويديه ويعلقونه على الحامل فوق النار ويضحكون له فيضحك لهم .. فلما مسته النار صرخ وغشى عليـه فمالت رأسه ، ورفاقه يضحكون منه والغرباء يقلبونه على النار ..

صرخت فى رفاقى : افيقوا !

فما سمعت صوتى فى ضجيج ضحكهم .. فتركتهم خلفى وجريت اطلب شاطىء البحر ، وقد طاش صوابى واخطات الطريق ثم عدلت اليها .

ومن عجبى ان احدا لم يتعقبنى أو يمنعنى مـــن الهرب ..

صرت الهث من الانفعال لا من مشقة الجرى ، وقد اظلمت الدنيا فى عينى مع اقتراب الغروب حتى وصلت بحمد الله الى الشاطىء . واخذت احد القوارب ودفعته بالمجدافين الى عرض البحر ..

ولما تاكدت من نجاتى من المتوحشين نظرت نحو الجزيرة ورايت وهج النار من بعيد فتقطعت حسرة على رفــاقى واشفاقا من مصيرهم فصرت اضرب راسى وصدرى بيدى واصرخ أستدر الدموع من عينى ودموعى عصية وعيـونى لا تكاد ترى ..

الفصل الحادى عشر

جزيرة الحب

اكان حلما ام حقيقة ؟!

الجنون يداخل عقلى ، وأحس كانى غارق فى اغماءة عميقة !

احس كانى منفصل عن العالم من حولى ، وكانى نائم يداهمنى كابوس ثقيل .

فهل حقا لاقى رفاقى جميعا ذلك المصير المشئوم ، وهل كنت معهم وتخليت عنهم وفررت بنفسى دون ان ادفع عنهم !

الجنون يداخل عقلى ..

وهاهى السفينة المعطوبة على مرمى ذراع منى كسفينة الاشباح وقد تحول كل اهلها ماعدا واحدا الى اشباح تضحك وتقدم اعناقها للذبح بوجه بشوش !

والسفينة الماثلة امامى بكل ماعليها من ثروات وكل ماضمته من ذكريات ومالقيته وواجهته من مخاطر واحداث .. رابضة فى المياه الضحلة ساكنة صامتة مظلمة كأنها صخرة صماء .

السفينة التى قاومت طيور الرخ بشجاعة اهلها فقدت اهلها وقرت فى الماء بلا مستقبل وبلا امل ..

فسبحان الذي يعلم الانسان كل شيء برموز حكمته .
والله قد زود الانسان بالعقل وهو أمضى اسلحة الدفاع .
فان انطمس عقله او غاب صار اعزل ضعيفا منقادا الى حتفه باقل جهد ...

لبثت في قاربي اياما .. كلما جعت ارتقيت السفينة لا تبلع بالماء والطعام ثم تدهمني الوحشة والحسرة فى قاعات السفينة التي تحمل آثار أصحابى فانزل الى قاربى وانام فيه .

في النهار انظر نحو الجزيرة وملء قلبى الامل أن اجد احد رفاقي قد افاق من غيبته وهرب نحو البحر ..
لا احد !

بعد أيام قلت لنفسي : ياعبد الله . ما الذى يبقيك هنا وحدك ؟ الجزيرة لن أجرؤ على نزولها بعد اليوم ، فان فرغ الطعام والشراب فى السفينة ماذا تفعل ؟

قررت ان اتحرك والاقي قدري محاولا النجاة من الموقع المفزع الذي امتلأت ارضه وسماؤه باطياف الفزع والاحزان .

جمعت فى قاربى كل ماتيسر من الطعام والشراب حملته من فوق السفينة .. ثم فكرت فى الثروات والتجارات التى خلفها فوقها الاصحاب وقررت اخذ ماخف حمله وغلا ثمنه منها وكتابة أسم كل مسافر على بضاعته .. وردها الى أهله ان نجانى الله وعدت الى بلادى سالما .

ففعلت ذلك كله واستخرت الله واعملت المجدافين الى عرض البحر .

أيام بعد ايام قضيتها بين البحر والسماء وحيدا خائفا

اطلب اتجاه الشمال مسترشدا بالشمس نهارا وبالنجم القطبي ليلا ..

إجدف ساعة واستريح ساعة ، انام بالليل او بالنهار واحرك المجدافين كلما سمحت عافيتى ، واشرب او اتناول الطعام بقدر ..

ومع ذلك نفد الزاد ولم اصل الى شىء من الارض .. ماء فوقه ماء .. وسماء على سماء .. ولا شىء بى سوى الجوع والظمأ .

انقطع املى فقلت : لماذا أهدر عافيتى فى التجديف وما بقى لى منها الا القليل ولا اعلم اين انا من الكون ؟.

صنعت مظلة فوق راسي ورقدت فى آلقارب وقد تركته لهوى الموج وتيارات البحر وآسلمت قدري لله تعالى وصرت يقظان كالنائم ونائما كاليقظان ارى الرؤى وتنتابنى المخاوف واحس بشفتى قد تشققتا ..

بعد حين لم اعد اشعر حتى بآلامى .. صرت مجرد قطرة تنطوى على رمق من الحياة .. سابحة فى محيط من الهلاك .. أريد أن أنام فلا اصحو .. وربما يسرقنى النوم الى الموت فى هدوء وبلا ألم ..

وفجأة .. تناهى الى سمعى غناء مطرب !

كانت الدنيا ظلاما وانا راقد فى عمق القارب لا اقوى على النهوض ..

تشبثت بجانب ألقارب ورفعت راسي وألموسيقى العذبة تتردد فى جوانب الافق فرايت لدهشتى جزيرة مضيئة امامى وعليها حوريات يرقصن ..

جزيرة الحب ؟!

فركت عيني ومددت يدى فى الماء وبللت راسى ووجهى وانا غير مصدق .

جزيرة الحب !

كما تصفها الحكاية ، نور وبهجة متفجرة .

تحاملت على نفسى وقعدت فى القارب ورايت القارب يندفع بقدرة الله الى الشاطىء منسابا بيسر .

اهتزت أعطافي وتفجرت النشوة فى صدرى وعجبت من نفسى وهى تهجس لى : هنا يموت الناس عشقا !

ومع ذلك لم أتردد فى ان ادلى قدمى فى المـــاء . والراقصات الحسناوات حين رايننى اشرن الى بالاقتراب والدخول فى حلبة الرقص ..

تقدمت غير هياب .. وقد شملنى سرور تطايرت معه من قلبى كل احاديث الموت واستبدت بى النشـوة وانا أهرول فى المياه الضحلة نحو الشاطىء واملأ عينى بحسن الحوريات البديعات ورقصهن الخلاب وقد تسربت الموسيقى الى شراييني ودماغى واعصابى وعظامى فصارت منى وصرت منها ..

ولما صرت بين الجميلات .. غنيت على موسيقاهـن ودخلت حلبة الرقص على ايقاعهن فأمسكتنى آحـداهن بدلال مثير وهمست فى أذنى : أيها الغريب .. لا تتعجل قضاءك فتدخل حلبة الرقص .. اذا احبتك احـــدى الحوريات واحتضنتك هلكت ..

وكانت اقرب الى من الاخريات ..

فمددت ذراعى احتضنها بشوق ، وشمرت ساعتهـا

الى التلاشي ، وكنت فرحا بالتلاشي فى أحضانها .. غائبا في حبها ..

ولكن شيئا ماضربني على وجهي ..

وسمعت صوتا يقول :

ـ اما قلت لكم انه حي .. انته .. يارجل !

فادرت راسي ونظرت ..

رايت سفينة فوق راسي وعليها بحـــارة ينادونني ، فنظرت حولي فلم أر غير جانب السفينة ملتصـــــق بقاربي والشمس في كبد السماء .

ظللت عيني بكفي .. وسألت :

ـ أنا حي ؟

فضحك البحارة وقال أحدهم :

ـ تسألنا ام نسألك ؟!

فحاولت ان انهض وماقدرت فملت في القارب حتى سقطت في الماء ونبهتني برودته فعلمت أن أعضـــائي ستخذلني وساغرق .

فهتفت بصوت مبحوح :

ـ النجدة !

وضحك البحارة مني والقوا الى الحبل حتى اتعلق به .

الفصل الثاني عشر

جوهرة

عشت فوق السفينة كالفتى المدلل .

احكي للتجار حكاياتي .. فمن يصـــدقني ومن لا يصدقني ..

غير ان المصدقين والمكذبين كلهم كانوا ينصتون لى كأن على رءوسهم الطير .. شغوفين مسحورين .

ان المرء قد يروى ماجرى ..

ولكنه لا يستطيع أن يبوح بسر نفسه وما اعتراه من روع او مرارة الا لاقرب الناس اليه . واقرب الناس الى قد فقدته وضاع مني أثره ..

المرء قد يروى ماحدث ..

الا ان الالام والمخاوف والهواجس والشهوات تظل فى النفس أسرارا لا تباح .

عادت سفينتنا الى البصرة التى استقبلتنى بالترحاب واستقبلتها بالحب والترحاب .

قصدت الى القاضي وسلمته ثروات الغائبين من رفاق سفرتى المشئومة . ودفعت بمالى وبضاعتى الى الدلال ..

ودخلت السوق فاشتريت افخر الملابس ، ثم مررت بالحمام فأزلت متاعب الرحلة .. وقصدت بعدها خان جابر .

لم يصدق جابر انه يراني سالما !
عانقني بشوق الصديق ، وجلس الي يرحب بي ويستمع الي حكاياتي وهو يحمد الله على سلامتي . فلما سالني عما كسبت من البحر من مال او جوهر .. قلت له :
ـ انني تعلمت ياصديقي من اهوال البحر درسا هو اثمن كنوزي ..
قال : ماهو ..
قلت : الرضى والقبول . لم أعد ذلك الطفل الذى يبكي ان تنكر له الاصدقاء ، او يقنط ان دار عليه الزمان تعلمت ان الحياة لها اطوارها وفيها الحلو والمر .. وعلى الانسان ان يرضى بها كما تكون ، وان يقنع بما قسم الله .
دهش الرجل وسالني :
ـ اتعنى انك لن تخرج ثانية للرحلة في البحر ؟
قلت : نعم . وقد عاهدت نفسي وانا في أتعس حال على جزيرة الشيطان بأني ان نجوت وعدت الى بلادي سالما لا اركب البحر ثانية أبدا .
قال : الخيرة فيما اختاره الله .
ثم قال : اذا ما استرحت قليلا .. اتحب ان تصحبني لتتفرج معي على ماتحب ؟
ـ لا عدمتك . وما يكون ؟
قال كأنه يتشهى : صوت هو من ترانيم الملائكة لمغنية وفدت الى البصرة يسمونها جوهرة ويزعمون أنها من تلاميذ ابراهيم الموصلي ذاته .. اذا علا صوتها خطف الارواح ، وان خفضته ذهب بالعقول .. سنقوم اليها اذا مالت الشمس برحلة تحت الارض ..

فضحكت من تهويله حتى سقطت فى ذراعيه اتخبط .. وانا اقول : ونعم بالجوهرة !

***

حين مالت الشمس تقدمنى جابر فى طريق متعرج خلف السوق حتى اذا أدركنا بابا طرقه ، ففتح الباب وتقدمنا غلام الى قاعة مكتظة بالزبائن آنتحينا منها جانبا وسرعان ما وافانا الغلمان بالشواء والشراب ..

كان الصخب يعلو على غناء المجموعة ، ثم صمت الناس فجأة ، وضرب العازفون لحنا قويا ، وانشقت ستارة .. انجلت عن « حياة » .. حبيبتى ومغنيتى واسعد ايامى الماضية ..

غنت على لحن عميق ممدود :

« آه على بغدادها وعراقها ..

« وظبائها والسحر فى أحداقها .

« ومجالس عند الفرات بأوجه ..

« تبدو أهلتها على أطواقها . »

ثم جرفتنى موجة عالية من ترديد مجموعة العازفين ، واذا صوت حياة على قمة الموجة ، يرفرف فى أسمى مكان .. .

نظرت اليها فى عينيها ، فلقيتنى بنظرة العارف الواثق مما يعرف ، وباشارة من يدها آنعطف العازفون على لحن من القرار ، وران على القاعة صمت كأن على رءوسهم الطير .. حياة ترتقى سلم الموسيقى بخطو موقع الى اعلى سماء ، وهى تغنى ..

« ولى كبد مقروحة من يبيعنى ..
« بها كبدا ليست بذات قروح .
« اباها على الناس لايشترونها ..
« ومن يشترى ذا علة بصحيح .
« ائن من الشوق الذى بجوانحى ..
« انين غصيص بالشراب قريح . »

فضج الناس من الطرب ، ووقفت فى مكانى كـأنى وقفت ببابها أو بين يديها ، وقد غمرنى حبها ، ورايتها من خلال دموعى تتقدم نحوى والموسيقى تردد خطرات غنائها من ورائها ، والمستمعون يهتفون : آه .. آه ..

قالت لى حياة : اهو انت ؟

قلت : بربك انه أنا . فهل نحن فى حلم ؟

قالت : نحن فى اليقظة والحمد لله .

وقلت : وهل طاب لك الزمان ؟

قالت : وهل صفى لك زمانك ؟

قلت : عندى من الدنيا مايكفينى .

قالت : وما عندك ياعبد الله غير المال ؟

قلت : الشوق لك . فهل يرضيك ؟

قالت : وماذا تريد ؟

قلت : ان تعودى الى بيتى سيدة فؤادى .

قالت : طردتنا من بيتك ياعبد الله . فهل نسيت

قلت : هل تغفرين ؟

قالت : وقبلها بعتنا بخمسمائة دينار .. أو قـد نسيت .

قلت : انت التى طلبت منى أن أبيعك .

قالت : واحسرتاه .. ألم تكن انت الذى بعت ، وألم تكن انت الذى اخذ الدراهم ؟

انا ؟!

وهل نسيت ؟!

وتقاذفت القاعة أصوات من هنا وهناك .

ـ نحن فى الانتظار .. لعله الحبيب القديم .. ما الحب الا للجديد .. كلنا احبابك ياجوهرة .. ولنا نصيب .

قلت : عودى معى الى البيت .. بربك

قالت حياة : انتظر حتى نسال وجوه الناس . ياقوم . رجل كان قد باعنى بخمسمائة دينار ، فلما رأى تعلق القلوب بنا وارتفاع شاننا شعر أن الشارى بخسه الثمن وجاء يطلب حقه ، فان كنت اساوى أكثر من خمسمائة دينار ، فالرجل مظلوم وعليكم ان توفوه الثمن او يردنى الى بيته ، فمن كان منكم ذا مروءة فليعطه ما بعوضه ومايفتدينى به والا سلمته نفسى . اظهروا مروءتكم .

ودوت الموسيقى لتغنى :

« ائن من الشوق الذى بجوانجى ..

« انين غصيص بالشراب قريح . »

ولكن صيحات الناس علت على صوتها :

ـ نحن لها .. نفتديك بالروح .. ما قصدت الا اهلها ..

وقذفونى بالدنانير ، مع الشغب على والشتائم ، وهم فى مرح وصخب ، فما شعرت الا بيد جابر تجذبنى بقوة وهو يقول : ستقتلنا عافاك الله . قم بنا فى

التو ..

وتناوشتني الأيدي تدفعني وتجذبني ، وضحكات السخرية تشمت بي ، ونظرات الوعيد ترصدني ، وانا هالك متهالك ، قلبي ينتفض من غضب وخوف وحرج وانفعال ؛ وعيناي تتعلقان بهذا الوجه الذي ما احببت في حياتي مثلما احببته شيئا ..

غرقت في المهانة والذل والعشق والرفض والويل ، وجابر يجذبني ، والدنانير تصفع وجهي ، « وحياتي » تغني ضاحكة بوجهي ..

لعنة الله على هذه الدنيا !..

لعنة الله على هذه الحياة !..

صرت أضرب سريري بقبضتي ، وجابر يهدىء روعي في الخان ويهيب بي :

ـ هون عليك ياعبد الله .. ماهكذا يصنع الرجال !.

عندئذ أفقت ، وتمالكت نفسي ، وقلت :

ـ غدا اشتري متجري واركب البحر ، لا بقاء لي هنا يوما آخر .

ـ الم تقل لي انك عاهدت نفسك الا تركب البحر ؟ هداك الله ..

ـ لابد مما ليس منه بد ..

الفصل الثالث عشر :

قسمة الكنز

مرت الايام والسفينة تشق الماء فى بحر هادىء وطقس بديع ..

قضيت أوقاتى فى السمر واستماع الغناء .. فعاودنى المرح ، وتعلقت بالحياة وخيل لى انى شكيت من حنقى وغضبى واحزانى ..

وكما أن للبحر قدرة على نسج الشعور بالانقطاع عن الدنيا .. فأهل البحر يملكون القدرة على نسج مشاعر التواصل بالبشرية والمؤانسة والطرب والامتاع .

وسطح السفينة فى النهار ، اذا واتى الطقس وهدا البحر يصبح منتدى للسمر يجتمع فيه رفاق الرحلة بلا كلفة ويتبادلون الاحاديث والنكات .

وكانت الرحلة قد سلخت اسابيع فى جو بديع وبحر هادىء رائق .. فتآلفت القلوب وتعارفت النفوس .

والمرء حسن فى الظروف الحسنة .. لا تدرى مايكون فى المحنة .

ولكنى لا اريد ان اسبق الاحداث ..

كنا فى سمر وضحك وطرب .. ولكن صيحة تناهت الى اسماعنا اسكتتنا على الفور ، والتفتنا مستطلعين ..

كرر القبطان :

ـ القوا جميع المراسى !
تهب القاعدون وقوفا ينظرون ..

كانت السفينة فى عرض البحر ، ولا يلوح أى شاطىء فى الافق . وكان البحر هادئا والشمس ساطعة .. الا ان السفينة كانت تجرى على صفحة الماء بسرعة جواد السباق .. فبهتنا ، وعلمنا ان القبطان يريد أن يثقل حركة السفينة .

وسرعان ما انزلت القلوع ..
ولكن السفينة استمرت فى جريانها ..

ولما جاءت صيحة من غرفة الدفة :
ـ الدفة لاتتحرك ياريس !

شق القبطان ثوبه وصاح :

ـ آن وقت الصلاة يا أهل الله !.. فقد دخلنا بالامر القدر بحر المغنطيس .. وتياره الجارف يستعصى على كل حيلة ، وسيدفع سفينتنا وقوارب النجاة وكل الاجسام الطافية الى الصخور والهلاك ، مالم تدركنا العناية الربانية بما يفك اسرنا من التيار . والله هو المنجى !

انقلب الحال الى صراخ وصياح وابتهال وهرج .. وعم الهلع ، وبهت الجميع ، فمنهم من بكى ومنهم من سجد لله ومنهم من القى بنفسه فى البحر .. فكنا نرى البحر يجرفه حول السفينة بسرعة وهو يتقلب على الماء بلا حول ولا قوة ..

تبدت لنا الصخور والشعاب بهياكلها المرعبة .. تندفع

نحونا باقصى سرعة ، فعلمت أن النهاية قربت فاغمضت عيني وشق صدرى فزع مفاجىء لم يترك لخواطرى اية فرحة للوهم او الذكريات .. واحسست أني غــائب لا محالة عن الوعي ، ولكن قبل الغيبة الكاملة احسست برجة هائلة وسمعت بأذنى صوت تمزيق الخشب والحديد على أسنة الصخور .. واخذتني الغشية .

***

خيل لي أني أسمع ضحكات .

وبين الضحكات سمعت صوت رفيق سفرى «ميسور» يهتف : نجاني الله !..

فتحت عيني فرأيته يجرى على شاطىء ..

تحسست اعضائي فوجدتني معافى ..

قمت قاعدا ، فرأيت ان البحر رماني على الشاطىء .. وكان يحف بالشاطىء جرف عالي الصخور ، فهو مساحة من الرمل محصورة كحفرة يغسلها الماء بموجات مندفعة .

اقبل على « ميسور » يعينني على النهوض :

ــ نجاك الله ياعبد الله . قم !

فقمت مذهولا اقول : الحمد لله .

قال ميسور : تعال ننظر من نجا من الرفاق .

واخذني من ذراعي .

كان الشاطىء مغطى باكوام من الصناديق والاخشــاب وحطام السفن ، فضلا عن بعض الاجساد .

كان « وليد » اقرب الناس الينا ، فوجدناه جريحا يرقد نصفه في الماء فجذبناه . ورأينا نور الدين يتكىء

على ذراعه وعيناه تحملقان ، فما أن رآنا حتى صاح : ضاع مالي ! ..

فما ملكت الا الضحك مما يقول .

فحصنا سائر الراقدين فوجدنا بعضهم قد مات ، ولما لمسنا « عبد القادر » انتفض واقفا ، فلما رآنا أخذ يعانقنا بفرح ودموعه تنهمر .

وجدنا « عثمان » قاعدا تحت الجرف في الظل ، فما ان اقتربنا منه حتى صاح : « أبتعدوا أيها الشياطين ! » . واخرج من كمه سكينا يلمع ، فتحاشيناه ..

ووجدنا « عجيبا » يفيق ، فقلت له : تعال معي نداوي رفيقا جريحا .

قال : « مرحبا بأهل الدنيا ! »

فلما ملت على وليد لافحص جراحه حتى سمعت « ميسورا » يهتف :

ـ يا أهل الله ! ارأيتم ماحولكم من حطام السفن ؟! انظروا ماتحت أقدامكم ايها السعداء !

فنظرنا وخطفت قلوبنا المفاجأة ..

تحولنا بين حطام السفن الكثيرة التى اغرقها بحر المغنطيس ثروات متناثرة .. ذهب وجواهر وثياب ملوك وسيوف مرصعة وتيجان وحلي . ودنان الماء وصناديق الطعام وكل ماكانت تحمله سفن غرقت هنا على مر الازمان !

ثروات فوقها ثروات !

اخذ الطرب ميسورا فصار يختطف من تحت قدميه العباءات المرصعة بالجواهر فيرتديها فوق بعضها ويضع

العقود الثمينة في عنقه والخواتم في أصابعه ويشد السيوف الى وسطه وهو يرقص طربا ويغني كطفل ..

استخف الموقف سائر الرفاق بشتى الصور ..

اما « نور الدين » فقد ارتمى يحتضن بذراعيه الثروات واجهش بالبكاء .

واما وليد فقد زحف من بين ايدينا فلما انتبهنا اليه وجدناه ينزف دما وهو يكوم امامه كومة من الثروات .

وصار ميسون يرمي الاشياء الثمنة لهذا وذاك وهو يصيح :

ــ ارتدوا أيها الرفاق أثمن الثياب والحلى ، فاننا ضيوف الملك قارون ، وسنباهيه بما نحن فيه من ثراء !

ثم التقط مزمارا وعزف عليه بينما تعالت الصيحات : اه .. آه .. اه ! ..

وانطلق الآخرون يرقصون حوله متمايلين .. ولكن شقت مرحهم صيحة من عثمان مخيفة :

ــ ارفعوا ايديكم عن الثروة !

وتقدم خطوتين ، وهو يحدج الجميع بنظرة صارمة . ران الصمت . وجمد الرفاق .

ــ ماذا قلت ؟!

كان عبد القادر اسبقنا للكلام ، فلمع الشر في عيني « عثمان » ، وابرز السكين بيده ، وقال :

ــ اخاف عليكم من غوايتها .

قال ميسور بخفة : عافاك الله من الخوف والقلق ..

فقال عثمان بصوت خطير : وان تقاتلتم عليها سيقتل بعضكم بعضا حتى تفنوا جميعا .

قال « عجيب » مستنكرا : فبماذا تشير ياسيد ؟

قال « عثمان » : سأقسم لكل رجل نصيبا .

فقال عبد القادر : ومن ولاك قاضيا للقسمة ياشيخ ؟!

قال « عثمان » : أنا اقواكم ، وآقدركم على كف شركم .

ولوح بالسكين ...

قلت : وهذا اعجب من كل ماسمعناه سابقا .

فضحك « ميسور » بمرح وقال : واطرف !

قال « نور الدين » بصوت يائس : دعوه يفعل مايريد .

وسال « وليد » : وكيف تقسم المال بيننا ؟

فهتف عبد القادر : هذا سؤال لا يسال . فالرجل شرير . والثروة تحق لنا بالتساوى . نقسمها اكواما ثم يختار كل منا قسما بترتيب السن .. الاكبر فالاصغر .

صاح « عثمان » : لا تثرثر انت ! انا اعرفكم جميعا . انتم تجار اشرار مغامرون ، تتبعون الهوى والأمر بالسوء . ويغلبكم الجشع والطمع . وكما تحتاجون أماما يؤمكم في الصلاة .. تحتاجون سلطانا يكف شركم ويقيم العدل بينكم ويسوسكم .

قال « ميسور » : الرجل بعد أن ترشح قاضيا ولي

نفسه سلطانا !

صاح « عثمان » : اتعرف انت ارضا بلا سلطان ؟!

فقال عبد القادر : الرجل مجنون . هيا نكتفه كتاف المجانين ...

وهم به ، و « ميسور » يقول : بل دعه نضحك منه ..

ولكن الضحكة ماتت حيث طعن عثمان عبد القادر بالسكين طعنة نجلاء فسقط الرجل يتخبط في دمه وعثمان يصيح فوق صرخته :

ـ الى الوراء ايها الاشرار ! واتركوا كل شيء على الارض ..

صاح « نور الدين » : شيطان رصد الكنز !

وصحت انا : لا تلقوا السلاح .

ولكن عثمان سبقنا فالتقط قوسا واطلق سهما فوق الرءوس :

ـ القوا كل سلاح وكل متاع !

فرمى كل منا مابيده من سلاح ومن متاع .

وتقدم نحونا مهددا ..

ـ الى الوراء . الى الوراء ..

فلم نتوقف الا وارجلنا في الماء ، وهو يقول : من كان منكم يريد ان يكون خادمي وفي طاعتي سينال نصيبا من الثروة ، والآخرون نصيب الذي قتل . الى الوراء ..

فتراجعنا مذعورين في الماء .. الا « عجيبا » ، الذي اقبل على عثمان يهتف : انا اخدمك ياسيد ، واجعل لي نصيبا من الثروة ! .

فقال له من فوره :

ـ سيكون لك النصف . اجمع كل ماخف حمله وغلا ثمنه وكومه في المكان الظليل تحت الجرف هنـاك ، واسرع !

انطلق « عجيب » بهمة يجمع الثروات .. وقال من بعيد : قرب الماء والطعام ياسيد ..

ـ هذه اجمعها كلها بلا اهمال ..

وقفنا هكذا في الشمس نصف النهار ، و « عجيب » يلم شتات الثروة بهمة ونشاط .. فلما مالت الشمس صرنا نبلل وجوهنا بالماء ونحن وقوف به . فأتى عجيب ببعض الماء يسقي عثمان ، وكان الظمأ قد برح بنا ، فصاح به نور الدين :

ـ اعطنا نصيبا من الماء والطعام ، ولا ننازعك في سائر الاشياء .

قال عثمان : مهما كان عندنا من طعام أو شراب لانفرط فيه ، لاننا لانعلم متى نخرج من هذه الحفرة ، فلا تطلب لنفسك او لغيرك شيئا .

قال نور الدين : سنموت !

فقال عثمان هازئا : عليك رحمة الله !

ارتمى نور الدين وهو يرتعش على ركبتيه وصاح : اذن خذني عبدا طائعا لا يخالفك فى أمر ، واعطنى جرعة ماء !

دفعه عثمان بقدمه : اذهب الى الشيطان .

فاندفع نحوه نور الدين يصيح : ولو كنت انت الشيطان

نفسه ، فانى خاضع لمشيئتك بجرعة ماء .

ــ ليس عندنا لك نصيب فى شىء ، فابتعد تنجو بحياتك . ! ابتعد !

ولوح فى وجهه بالقوس والسهم فصاح «نور الدين»: لم يقبلنى عبداً بجرعة ماء ، وماء البحر يملأ الافاق ..

ورمى نفسه فى الموج ونحن نحاول ادراكه فما استطعنا من قوة دفع الماء أن ندركه ، بينما صار يتقلب على الموج ويتقاذفه الماء حتى غاب عن انظارنا فى لجة البحر ، فادركنا انه غرق . وتمزقت صدورنا بما وقع ، ولم نعد نملك أنفسنا من الحزن فقعدت فى الماء واحطت وجهى بذراعى لابكى خفية عن زملائى ..

سمعت صوت عثمان يتهدج :

ــ اعط كلا منهم جرعة ماء .

فشربنا ، أنسحب عثمان وعجيب فى ظل الجرف وقد كوما الثروات ورايتهما يصلحان بعض الصناديق المهشمة ليضعا فيها الكنز ..

قال « ميسور » : فلننطلق لنبحث عن بقايا طعام . أو شراب حتى لا يضطرنا الجوع والظمأ أن نتسول قوتنا .

فانتشرنا نجمع ماعافت نفس عجيب ان يلتقطه من بلح مغموس فى الرمل أو قدر مكسور بقاعه قطرات ماء ، وانتحينا ناحية والشمس تميل فى الافق .

اكلنا ثم قمنا ندفن الموتى ، ونقرأ كلام الله على قبورهم ..

ثم قلت لرفيقي : لا خروج من هذا الجب .. الا ان نصنع سلما من الخشب والحبال نرتقي عليه الى أعلى الجرف .

سال « وليد » : وهل يتركه لنا أن صنعناه ؟

فقلت : واية حيلة لنا في ذلك غيرها ؟

انتشرنا نجمع الاخشاب والحبال ، وميسون يقيس ارتفاع الجرف بعينيه ، ويرتب الاخشاب بحيث يصير السلم متوازن القوة .. فلما أدركنا الليل نمنا ، وصحونا بكرة نعمل بهمة ونشاط .

اخيرا .. اسندنا السلم الى الصخرة ، واتفقنا ان يصعد وليد اولا لانه اخفنا وزنا .. وأن ننتظره ليستطلع المكان فوق ثم نتبعه .

صعد وليد السلم متحاذرا .. درجة درجة ، ونحن نسند اخشابه بأيدينا ..

ولاحظت أن عثمان ورفيقه يرقبانه بانتباه .

فلما وصل وليد القمة .. اختفى بعض الوقت ، ثم بدا يلوح لنا فوق الجرف ويصيح :

ــ ماء وشجر . نهر صخاب . فواكه من كل صنف . تعالوا تعالوا ..

فهتف عثمان واقفا يصيح به :

ــ أيوجد عمران وبشر ؟

قال وليد : لا .

ــ وهل النهر يصلح للسفر فيه ؟

قال وليد : يلزمكم قارب ..

فصاح به عثمان : الآن فانزل وساقاسمكم الطعـــام

والشراب واعطيكم بعض المال اذا صنعتم قاربا ..

فصاح به وليد :

ــ والله لو عرضت علي الكنز كله لا انزل بعد ان فزت منك بحياتي .. فوداعا ايها الرفاق وافعلوا ما بدى لكم ..

اختفى وليد ، بينما اقترب منا عثمان وصاحبه ..

اسر لي ميسور : يحسن ان نطيع .

قلت : نعم ..

قال ميسور لعثمان : واذا اصلحنا قاربا من قوارب السفن المحطمة هنا ، فكيف نستطيع ان نرفعه الى فوق ؟

قال عثمان : سندبر هذا بالحبال ، بعد أن يكون بعضنا فوق وبعضنا تحت .

قدم لنا الطعام والشراب ، واخذ يتلطف معنا بالحديث وقد انتقينا اصلح الاخشاب من عدة قوارب محطمة ، واقمنا منها قاربا واحدا لا بأس به .. وتدبرنا في رفعه فقال عثمان :

ــ سنرفع الثروة اولا .

صعد عثمان السلم اولا . ثم تبعه ميسور ، واقاما معا فوق الصخرة قاعدة للرفع تجري الحبال على بكرة ، وارخوا الحبال .. حينئذ صرنا انا وعجيب نربط بها الصناديق ويتعاون عثمان وميسور على ضمان اتزان القاعدة والبكرة من فوق ، ونحن نشد الحبال من تحت لنرفع الصناديق الواحد بعد الآخر .

كنت اشهد فرحة عثمان فوق بوصول الصندوق وهذره مع ميسور .. بينما كان عجيب عندى يرقص طربا ومرحا ويتلطف معى .

وكنت أدعو الله أن يهديهما للخير ، بعدما اقترفا من آثام ، وان ينجينا من الشر .

جاء دور القارب فرفعناه شبرا شبرا على جانب الصخرة ، محاذرين دائما من اصطدامه بالحجر .

وكان التعب والارهاق قد نال منا ، والعرق يتصبب من جسدينا ، وعثمان يهيب بنا من فوق :

ـ الشدة يارجال . كان الله فى العون .

فلما حط القارب فوق سحبه عثمان وميسور واختفيا بعض الوقت ، فقلق عجيب وصار يصيح :

ـ عثمان . اخى عثمان .

ثم اشتد به القلق ، فأخذ يرتقى السلم ، ويقول لى :

ـ انتظر حتى أصعد لفوق . حتى لا نثقل السلم بصعودنا نحن الاثنان معا .

ولم يخطر ببالى ابدأ ان اسابقه فى الصعود ، او ان الحق به عن قرب ، لخوفى مما سيكون ، ومحاذرة مما سيقع .. وقنعت بالانتظار ، وانا فى اضطراب عظيم .

وكان عجيب قد وصل الى ربع المسافة فوق السلم ، حين بدا عثمان فوق يصيح به :

ـ ياعجيب . اقتل من عندك فقد قتلت من عندى ، ثم الحق بى ..

ففرح عجيب ونزل مجذولا نحوى يشهر السيف . وجريت من خوفى منه . كنت اعزل عن كل سلاح ، وقد

تملك عجيبا جشع يتفجر من عينين وحشيتين ، لم ار في حياتي قط ما اجتمع فيهما من بريق القسوة وبريق السعادة معا .

ولكن ذهني الهمني فالتفت اصيح به :

ـ أدرك الرجل فهو يعطلك ليفوز وحده بالثروة .

فتردد ووقف . ثم حزم أمره وعاد الى السلم يرتقيه بلهفة ويصيح بعثمان ان ينتظر . فما وصل عجيب الى اعلى السلم حتى ظهر لي عثمان .. ودفع عجيبا بقـوة فوقع من حالق والسلم فوقه . ولما أقتربت منه وجدته مات ، وعثمان يضحك فوق .

عصف بي الأنفعال ..

بللت وجهي بماء البحر وقعدت هناك .. لم اشعر في حياتي بما داهمني آنذاك من الكمد والعجب من الناس . فكم رجلا نجا من العواصف ليلقى حتفه فوق صناديق المال .

لم استعجل تدبير الهرب من هذا المكان النحس . وخليت الوقت لعثمان كي يهرب بثروته ..

التمست الموضع الاول الذي أختاره لنفسه عثمـان حيث جمع الطعام والشراب فأصبت بعضا منهما ، وكانت الشمس تميل في الافق فنمت ..

تناوشتني الاحلام المزعجة ، فكنت اصحو فانتبه لمـا انا فيه فيغشاني حزن فوق حزن واعود للنوم .

في الصباح قمت . فدفنت جثمان « عجيب » ورأيت هدوء ملامحه وأسترخاء اعضائه وانا اتامل حكمة الله فاطر السماء والارض ، وصانع النفوس ..

لم يبق امامي الا اصلاح السلم ، وجبر ما انكسر من اخشابه او ما انحل من حباله ..

فلما اتممت ذلك رفعته بكل مشقة على جدار الصخرة واخذت أرتقيه محاذرا خطوة خطوة .

فلما وصلت فوق ، وجدت الدنيا غير الدنيا ..

فاني قادم من فوق ركام السفن والشاطىء الصخرى القاحل ، ومعالم الكوارث ومدافن الموتى .. الى جنة خضراء ذات طيور وحياة ..

اتجهت للنهر ..

فوأعجبا !..

رايت القارب محملا بالصناديق ومربوط بعناية الى الشاطىء ، وفوقه كل الكنوز ..

وعلى جنبه يرقد « عثمان » و « وليد » قتيلين !

فقدرت ان وليدا لم يبتعد عن الموقع بعد ان اعلن عزمه على الرحيل ، وانتظر ، فى مكمن ، فرصة تحين للانتقام او للاستيلاء على الثروة .. كيف ادرى ؟

فلما قتل « عثمان » « ميسوراً » ، ووضع الثروة فى القارب واستعد للرحيل برز له وليد بقضيب من الخشب فضربه على رأسه .. ولكن عثمان كان به الرمق بعد ذلك ليطعنه بالسيف فى صدره ..

ورقد الاثنان قتيلين جنب القارب .

فما اتعس المال !

لم أستطع البراح الا بعد ان عثرت على جسد « ميسور » .. وحفرت حفرة دفنت بها الرفاق الثلاثة، وقرأت بعضا من كتاب الله ..

ولبثت ساكنا بعض الوقت استجمع شتات نفسي ، ثم القيت جسدي في القارب وحللت رباطه فانساب مع مجرى الماء وقد مالت الشمس للمغيب ، ولعلي نمت بعض الوقت ، فلما صحوت كانت النجوم تطل على من الظلام ، والقارب منساب .

تأملت ماجرى واستفزني غضب وانكار .

فقد رايت في حياتي الموت على كل صوره .

رايت الزوابع وشيطان البحر وتحطيم السفن والغرق رايت الرخ والافاعي القاتلة وفتك الصخور .. ومع ذلك لم أر في حياتي اكثر اثارة للنفس بالغضب من رجل قاتل .

فالرجل القاتل هو وحده من دون سائر أدوات الهلاك .. الذي يعرف انه يقتل .

الرجل القاتل شر من كل عواصف البحر ، واخبث .. لان عواصف البحر تمضي في طريقها الخطر بريئة عن العمد والقصد الى القتل .

ها انا اسبح في النهر فوق كنوز قارون ، ولا املك نفسي التي تجيش بالقشعريرة وانا اتذكر كم رجلا فقد حياته فوق هذا الكنز .. وكم من الاصدقاء والرفاق والابناء والارامل يبكون اليوم رجالا ماتوا هنا ، وهم لايعرفون تفاهة السبب الذي قتل به احبابهم !

الفصل الرابع عشر :

أميرة الهند

سمعت ضحكات أنثوية رقيقة ، ثم أحسست باهتزاز الزورق .

قمت من نومي استطلع فرأيت نساء هنديات يهززن قاربي وتتضاحكن مرحات ، فلما رأينني قمت قاعدا في القارب صرخن وجرين متدللات نحو الشاطيء .. فعلمت اني وصلت العمران فدفعت الماء بالمجداف أطلب الشاطيء حيث خرجت البنات ، وربطت القارب الى شجيرة هناك وتبعتهن ، وقد حملني شبابي على الطرب من جمالهن .

فلما دخلت حرشا أطلبهن ، وجدت الجند يحيطون بي متحفزين ، واحدى البنات لاتزال ترتدي ثيابها قد برزت لي تصرخ بالهندية .

ودفعتني في صدري بغضب .. فأحاط الجند بي وهي تصيح بلسانها الهندي .

تملكني الخوف فقلت :

ـ سامحك الله ..

فقالت بلسان عربي : انت عربي !؟

قلت : نعم :

قالت : وما أتى بك الى هنا ؟

قلت وانا اتحسس موضع ضربتها على صدري : القدر

رماني لاتلقى كرم ضيافتكم .

فغالبت الضحك وقالت :

ـ الا تعلم ان التلصص على البنات وهن فى حمامهن امر يستوجب العقاب ؟.

حمامهن ؟! .. قلت : ظننت ان زورقى يجرى فى النهر ..

فقالت الفتاة : الم تر البوابة على النهر لتعلم انك دخلت بستان الملك ؟

قلت : بستان الملك ؟! أهلكنى تيار الماء وانا نائم فى زورقى .

قالت : وهل جئت من بلدكم نائما فى زورق ؟!

قلت : لا والله . فقد كنت فى سفينة غرقت فى بعض النواحى فأصلحت الزورق واجريته فى النهر ..

قالت : سنتحقق من ذلك فى قصر ابى ..

واشارت الى الجند : فاقتادونى الى محل ضيافة الغرباء بجوار قصر الملك ، فوجدته بيتا متواضعا خشنا وقدرت أن هذه المدينة لا تعرف بعد ترف الحياة الناعمة.

***

حمل الى الخدم صناديق الثروة من الزورق ، ففتحتها للمرة الاولى فخطفت بصرى التحف المثمنة وكانت شيئا كثيرا جدا .

صدقنى .. لقد أطربنى ما احصيت فى حيازتى من الاشياء الثمينة ، وكنت أحسب انى سانفر منها لما أريق حولها من الدم . وقدرت أن الاشياء تمضى من يد الى

بد فتذوب من حولها ماارتبط بها من احداث اليمة او ذكريات مؤلمة .

دعاني الملك الى مجلسه فانتقيت من صناديقى بعض الهدايا الثمينة وذهبت اليه فوجدته جالسا بين وزرائه ورجاله والى يمينه ابنته الاميرة .. فراعني جمالها وهي في اتم زينتها .

وكان الملك يجلس على سرير متواضع ويتدثر بعباءة خشنة ، وقد ارتدى وزراؤه الملابس في غير اناقة ، فاحسست بالحرج من كوني قد حرصت على ارتداء اثمن ملابسي واجملها .

سالني الملك عن حكايتي .. فحكيتها له وهو يضحك ويتمايل من الضحك حتى يضحك معه رجـــاله وهـــو يقول :

ـ زدنا يارجل من عجرك وبجرك واحاديثك المخترعة، ولا تدخر شيئا من اكاذيبك المسلية ..

فقالت ابنته : ولكني أصدقه يا ابي .

فقال الملك : لانك يا « رانا » لاتزالين طفلة لاتعلمين ما الدنيا ..

قلت وانا اكتم غيظي : في هذه الدنيا يامولاي اشياء لم أرها في حياتي ، ولكني اصدق وجودها ان شـــهد بذلك غيري .

قال الملك : لا اصدق الا ما أراه ، وقد رايت في حياتي كل الاشياء .

قلت : عفوك يامولاي ، لعلك رايت اشـــياء كثـــيرة ،

ولكنك لم تر نبالة وجهك .

طرب قليلا ، ثم ضحك وقال :

ــ وهل يرى الانسان وجهه الا مهتزا على صفحة الماء ؟

قلت : نعم ، فعندى الشيء الذى ترى فيه وجهك كما اراه الآن .

واخرجت من صندوقى مرآة قدمتها له ، فنظر فيها وانزعج ، ونظر حوله فاخذت منه ابنته المرآة ونظرت فيها وشهقت . .

قلت : كل شيء فى صندوقى يامولاى ، هدية لك ، وهى طرائف ليس مثلها عند الملوك ، فدعنى أعرضها عليك .

وضعت بيدى على كتفيه عباءة مرصعة بالجواهر ، وعلى سريره مفرشا من الدمقس ، وتحت قدميه سجادة ثمينة من العراق ، وعلى جانبيه مصباحين من الذهب أوقدتهما فسطع ضوءهما ، وامامه منضدة مطعمة بالصدف والفضة ، ثم قدمت له سيفا مرصعا بالاحجار الكريمة . .

هتفت البنت : ما اجمل هذا !

فقدمت لها من الصندوق ثوبا مطرزا من الموصلى لففته حولها وزينته بالعقود والدبابيس المرصعة ،ووضعت على راسها عمامة موشاة بالذهب والماس ينسدل منها وشاح موشى بخيوط الفضة والذهب .

شمل القاعة طرب وتعالت الصيحات وامسكت الاميرة « رانا » بذراعى وهتفت :

ـ ابقه يا ابي !.. ابقه في بلادنا ليحكي لنا مزيدا من اخبار مالم نر ومالم نسمع به !

***

اهدي لي الملك بيتا في المدينة ونزلت في ضيافته اتفرج على بلاده في النهار ، واعاني السأم في الليل ، وانتظر .

سمعت من الناس انه قلما تاتي الى هذه البلاد سفينة ، ولكن املي لم ينقطع .

فكرت في ان اعالج السأم بعمل اقوم به .

فمرة كنت في ضيافة الملك ، وكان يسالني عن حالي وعما رايته في مدينته فقلت له :

ـ يامولاي . لقد رايت الفرسان في بلدكم يركبون الخيل بلا سروج ، والسرج اليق واكثر راحة في الحرب او في السفر .

قال الملك : وماهو السرج ؟

قلت : لو اذنت لي قدمت لك سرجا هدية .

وكان بصناديقي سرج ثمين أحضرته معي .. فخرج الملك الى باحة القصر ومعه ابنته ورجاله فاسرجت له جواده فركب عليه ، واختبر توازنه على الجواد ومشى به وأنا ارشده الى مايصنع بالركاب وكيف يسوس الجواد . فلما دار في باحة القصر دورتين ، واطمأن الى السيطرة على الجواد هتف :

ـ ما أيسر الركوب بالسرج !.. كأني جالس على سريري بالذات ! .

فصفقت ابنته من الطرب وسالتني :

ـ اعندك سرج لى ؟
ولم يكن بصناديقى غير هذا السرج ، فقلت :
ـ اذا سمح لى مولاى فانا اجمع نجارا وحدادا ومنجدا فنصنع سروجا كهذا السرج كما يرى الملك .
فأمر الملك بتنفيذ ذلك .

***

لما رأى أعيان المدينة حفاوة الملك بى ، وآنسوا منه الميل لى .. تسابقوا الى زيارتى والتلطف معى وأهدائى .. فلم ابخل على احد منهم بهداياى الكثيرة .
فتحت دكان السروجى ، واشرفت على عمل النجار والحداد والمنجد .. وتسليت عن وحدتى وعالجت سأمى بالاستغراق في العمل .
كانت الأميرة تمر بى فى الدكان ، وتغدق على من رقتها ولطفها ..
مرة قالت لى : ياعربى . نسأل عنك كثيراً ، لنطمئن عليك ، وانت لا تسأل عنا أبدا ؟
قلت : بارك الله فيك ولا بارك فى ..
فضحكت وقالت : تلصصت علينا فى الحمام فاغضبتني ومع ذلك عفوت عنك ، فهل تريد أن اغضب منك ثانية ؟
قلت وانا أتحسس موضع ضربتها على صدرى :
ـ كان عفوك مؤلما يامولاتى فما بال غضبك ؟
ـ فكيف بك أن ذقت عقابى لك بسبب اهمالك السؤال عنى ؟
ـ ان سخطت على فهذا عقاب اليم .

ـ انا ساخطة .
ـ فعلى أن اطلب الصفح وان أسعى الى رضاك .
ـ ولن أرضى حتى تصنع السرج لى وتعلمنى ركوبه كما علمت أبى .
ـ حبا وكرامة ..
ركبنا انا والاميرة في الخلاء ، على جوادين مسرجين ، وانا ارشدها الى طريقة السيطرة على الجواد والتوازن فوقه واحكام قيادته ..
وكنت اعمد احيانا الى اظهار مهاراتى فتضحك جدا وتريد أن تقلدنى فاحذرها .
لما وصلنا الى ضفة النهر نزلنا نستريح ، وجلسنا بين الزهور البرية . فتذكرت اوطانى ، وما ببلادى من الترف والتمدين والفنون والعلوم وعجبت مما بها أيضا مما يؤلم ، حيث تذكرت « حياة » وما كان منها معى .
قالت الاميرة : ما اطول صمتك ..
قلت : تذكرت بلادى .
قالت : لا تدع الحنين يذهلك عما أنت فيه من راحة البال . انت فى بلد أهله يحبونك ويعظمونك . الا يسرك هذا ؟
قلت : نعم .
قالت : يبدو عليك غير ذلك .
قلت : ليتنى كنت مثلكم ولى عاداتكم وبنفسى مابنفوسكم .
قالت : لا اتمنى لك ذلك . فقد احببناك كما أنت ، ولما عندك من الذكاء والمهارة . لا تأبه لعاداتنا وكن دائما أنت .

قلت : وددت لو استقامت اموري وعشت في بلادكم

قالت : هذا افضل مما يقال عندنا في مثل هذا الحال فعندنا يقال : وددت لو أموت عندكم .

وقامت تجري وهي مضطربة ، فعلمت أن الاميرة قد تعلق قلبها بي فاعتراني الخوف .. حيث أن ابنة الملك تكون عادة موضع تنافس بين شباب الاسر الغنية ، ولعل اظهار هواها يعرضني لمخاطر لم اطلبها .

عمدت الى العودة للمدينة بسرعة .. فما أن افترق ، كل منا في سبيله حتى لاحظت هرجا في السوق ومناديا يصيح : سفينة ! .. يا أهل البلد .. سفينة !

فخفق قلبي بقوة ، ولويت عنان الجواد نحو المرفأ ، فوجدت سفينة في الافق تتجه للشاطيء فعمدت الى بيتي باسرع ما استطيع ، وجمعت ماعندي مما خف حمله وغلا ثمنه في صناديق وانا مضطرب من انفعالي . فلمـــا اتممت ذلك فكرت في زيارة الملك لاستئذانه في السفر ، فاذا طارق يطرق على الباب ورجل من الحاشية يدعوني الى القصر .

كان رجال الملك يحيطون به ، وكل منهم فضـــلا عن سيدهم ، من اصدقائي وممن انتفعوا بمشورتي وهدأ بأي فلم اضطرب لاجتماعهم على هذه الصورة ، ولكني تعجبت من غياب الاميرة في ساعة الوداع هذه .

ـ دخلت سفينة المرفأ ياعبد الله ، فهل عرفت ؟

ـ نعم يامولاي .

ـ قلما تدخل سفينة في مرفئنا لان البحر من حولنا خطر . ولكني علمت أن هذه السفينة تأتي من البصرة ، ولعلك تجد فوقها من تعرف ..

قلت : نعم يامولاى .
قال الملك : فعلام عزمت ؟
قلت : عن أى شيء تسالنى ياملك الزمان
فاستاء وقال : الا تعلم عن اى شيء أسالك ؟!
قلت : لا تؤاخذنى يامولاى ، فمازلت مبهور الانفاس مما سمعت .
قال : لقد أكرمنا ضيافتك يا عربى ، فهل تشكو من اى شيء ؟
قلت : حاشاى . وانا مدين لك الى آخر العمر ..
قال متلطفا : ونحن مدينون لك من حيث علمتنا صنائع كثيرة واضفيت على حياتنا ترفا ولطفا لم نعرفه قبل . ولذلك فقد استشرت رجالى فوافقونى انك عندى اغلى من كل الاشياء التى أحببناها . انت أثمن شيء أملكه . فاطلب ماشئت أقضيه لك .
قلت : أكرمتنى يامولاى فوق ما استحق ، ولا اطلب الا اذنكم فى العودة الى بلادى واهلى .
فغضب وقال : غدر بك لسانك ياعربى ، فما هكذا يكون شكر الملوك على عطاياهم .
قلت : ماذا قلت ليغضبك يامولاى .
قال : ايرد للملك قول أو اشارة ؟!
قلت : لم أرد لك قولا أو اشارة !
فاشار بيده ، فاذا الجند احاطوا بى ، واقتادونى اقتيادا الى باب جانبى بالقاعة فنزلت سلما فما بلغت نهايته حتى وجدت نفسى فى السجن ، واغلقوا على بابه

وذهبوا ..
مضى النهار فلما أتى الليل جاءونى ببعض طعـام عافته نفسى ..
جافانى النوم ، ولما أصبح الصباح دأخلنى الخوف ، فاختلط بالسخط فى نفسى ، فارتبكت ..
السفينة العربية فى المرفأ ..
وانا هنا سجين لا يعلم عني احد شيئا ، ولو قتلنى الملك ، لن يعرف أحد محنتى !
لما مالت الشمس جاءنى سجانى بالطعام ، فلما رأى طعام البارحة امامى قال :
ـ لم تأكل طعامك .
قلت : لا اريد .
قال : لا تحزن لما أنت فيه واولى بك أن تسعد باعزاز الملك لك .
قلت : اعزاز الملك ؟!
قال : غدا تذهب السفينة وتعود أعز ندمائه .
قلت : وهل يصفو لى مجلسى معه بعد اليوم ؟
قال : او كنت تحسب أنه يفرط فيك او يتركك تسافر بعد ان احب مهارتك وبديع صنائعك ؟
قلبت رأسى عجبا !
لقد قال لى انت اثمن شيء عندى وأغلى شيء أملكه .. فيالخسة التفكير وحماقة التعبير !
كلما ألتفت ناحية صادفت عجبا ، ومن أعجب ماصادفت أن يصبح كرمى ومساعدتى سببا لعبوديتى ، وأن تصبح مهارتى وذكائى سبب الازدراء بى وسجنى .

قلت للسجان : انا انسان ولست شيئا يكتنزه الملك، او انا من جملة مقتنياته .

قال السجان : وكيف تعجب من ذلك وفي هذه الدنيا كل رجل يملك الآخر . هذا هو الناموس ، مهما زين المنافقون أحوالنا . فهل تعرف في بلادكم غير ذلك ؟..

تأملت قول السجان ، فعلمت أن الدنيا ضاقت بي . ولا احسب أني أحسست في حياتي بالضيق مثلما احسست في تلك الساعات ..

فاني ماسافرت من بلادي الا لمحب رماني او محبين امتصوا خيري ثم نبذوني نبذ النواة ، وكما ركبني عجوز البحر استغلني اصدقاء محسوبون علي . لقد كنت مجرد شيء هنا وهناك ، أو ليس الافضل ان أكون شيئا مرغوبا فيه ومحبوسا في قصر الملك ، من أن اكون شيئا رمته الحبيبة في خان البصرة لجماعة من السكارى يهزاون به او ان اكون شيئا رماه البحر فقيرا مسكينا على حائط ضريح « سيدي الغريق » ؟!

تمردت على نفسي ولعنت المقارنة !

انا لست شيئا ! انا انسان .. ولن أدع لاحد سبيلا

ان يمتلكني بالمعروف او بالعدوان ، حبا ان انتفاعا او استغلالا .. فأنا انسان !

انا رجل حر ، ولن أدع لاحد سبيلا الى حريتي .

فتح باب الزنزانة فاوقف ذلك خواطري .

وجدت الاميرة أمامي .

وضعت سبابتها على شفتيها ثم قالت بصوت عال :

ـ قم ياعبد الله ، فالملك يطلبك .

تبعتها صامتا ، والسجان حائر ممتثل .. فاقتادتنى فى ابهاء القصر حتى وجدت نفسى فى الطريق .

كانت الدنيا ظلاما ، وهى تتقدمنى وانا اتبعها حتى بلغنا زقاقا يؤدى الى المرفأ .. فتوقفت وواجهتنى :

ـ فر بنفسك ياعبد الله . أمامك المرفأ والسفينة ستبحر فى الصباح ، وقد اكتريت لك عليها والقبطان ينتظرك ، ولن يعلم أبى الا وانت فى عرض البحر سالما ..

ـ وانت ؟

ـ لا تقلق على فأبى سيتلطف بى بعد غضب قصير .

قلت : سيدتى . ضحيت برضى ابيك من أجلى .

قالت : أرى دموعا بعينيك .

ـ تعالى معى الى بلادى ..

ـ لا اجرؤ .

ـ تحبيننى .

ـ ليتك احببتنى كما أحبك .

ـ احبك .

ـ لو كنت اثق فى حبك لركبت معك فى الحال .

ـ اقسم لك ..

ـ لا تفعل .

وجرت من بين يدى ، وهممت بالمضى الى السفينة ، فما خطوت خطوتين حتى توقفت منفعلا : الى اين يا عبد الله . او تترك من احبتك لتعود تبحث عمن نبذتك .. وتتاجر فى الخسارة .

عدت ادراجى مسرعا فعند أول منعطف وجدتها واقفة تنتظر ودموعها تنهمر على خديها . تلقيتها فى ذراعى فاحاطتنى بذراعيها وأنا اقول :

ـ يا اميرة فؤادى !.. انا اسيرك واحبك ولا غنى لى عنك فى الدنيا كلها .

فشهقت ونادتنى باسمى وانا اقبلها بشوق فاض منى فعلمت انى ماكتمت حبى لها بصدرى فيما مضى الا اشفاقا من صدها وخوفا من أبيها ، ومن المتنافسين على زواجها علمت كم كنت احبها .

الحياة بعد الموت

قضيت شهورا في سعادة آنستني في غربتي .

عادت لي مشاعر الطمأنينة وراحة البال التي كانت هجرتني منذ اقلست في صباي الاول ..

لم يدخر الملك أو رجاله وسعا في رعايتي والحفاوة بي ..

كنت أقضي نهاري في معملي أدرب الصناع على صنع مختلف الطرائف غير ما علمتهم من صناعة السروج وزينة الفرس ..

وفي المساء كنت في قصر الملك أو في بيتي مع أضيافي نستمع للغناء أو نشاهد الرقص الهندي البديع ، ونقضي جانبا من الليل في السمر .

كانت حكاياتي تشوق كل من اجتمع حولي من أهل المدينة ، فان انقطع الحديث تزاحموا لسؤالي عن بغداد والبصرة وما فيهما من عمران واحوال واشياء . وينصتون مشغوفين ..

وكانت اميرة فؤادي « رأنا » تحيطني دائما برقتها وحبها وانسها فلا تغيب عن نظري ساعة الا افتقدتها واشتقت لها .

كما هوت اميرتى ركوب الخيل بعد أن دربتها على ذلك ، فكانت ترافقني كثيرا فى ارتياد ما بظاهر المدينة من غابات وأحراش وريف .. فنقضى نهارا فى الخلاء الاخضر الغنى بالجمال والحياة .

فذات مرة جاءنى نجار معملى حزينا وقال لى : عندى نبأ سيء ياسيدى . فقد ماتت زوجة الحداد فهل ترافقنى لتعزيته ؟

فاسفت أسفا شديدا وذهبت معه .

عجبت اذ رايت الحداد فى بيته قاعدا . يبكى وهو اشعث الشعر ممزق الثياب يلطم خديه ..

وصاح بنا :

ـ يامصيبتى ! آه مما الم بى !.. ماذا سيقع لاولادى الصغار المساكين .

وتحتضنه ابنته وهى تصرخ : أنا فداؤك يا ابى . لا تبك وانا فداؤك !

تقدرت انه لابد كان يحب زوجته حبا بالغا ، فواسيته معزيا : يعطيك العمر الطويل يارجل . لا تجزع .

فاعول وقال : ضاع عمرى فاين لى به وقد ماتت زوجتى ..

ملت على النجار أهمس له :

ـ لابد انه كان يحب امراته حبا فائقا ليجزع عليها هذا الجزع ..

همس لى النجار : انما يجزع على روحه لا عليها .

قلت : يجزع على روحه ؟!

قال : لانه يدفن اليوم مع زوجته .
ـ ماذا قلت ؟!

قال : هذا ناموس البلد . كل زوج تموت زوجته ، او زوجة يموت زوجها .. يدفنان معا
صحت رغما عنى : حيا ؟!
همس النجار : نعم .
قلت : ما أفظع العقوبة !

قال النجار : ليست عقوبة ، وانما رفقة الحيـــاة الدنيا تمتد فى الحياة الاخرى .. هذه عقيدتنا .

لاحظت أن الصمت عم البيت ، حيث تناهت الى الحاضرين صيحتى فانتبهوا لما اقول .
فخاف النجار وهمس لى : لا تسال !

فصاح الحداد المسكين : دعه يسال . دعه يعترض . دعه يتكلم . فهذا الرجل الكريم يأتى من بلاد غير بلادنا وافضل من بلادنا ، ويرى فيما تقضون به على جناية بلا ذنب تفرضونها على وعلى أولادي ، فتقتلون النـــاس بما لا يستحقون ..

حبست لسانى عن كل قول وناجيت نفسى :
ـ لا اله ألا الله .. ماذا يفعل الناس يارب العالمين ؟! ..

وطفرت دموعى وانا انظر للرجل الميت الحى أمامى ، وأحســست بغشية .. فجذبنى النجار وقال لى : دعنى آخذك للبيت ..

فوالله ما كنت قادرا علي المشى لولا إنه أسندنى ، وعاونتى على الذهاب الى بيتى وقد كرهت ايامى ..

لما رآتنى زوجتى مريضنا حدبت على ، وسألتنى فلم اقل لها شيئا . ولما لزمت البيت جاء النجار يعودنى ، فسألته :

ـ بالله عليك قل لى . كان الرجل فى غاية الجزع ، ومع ذلك لم يهرب . لم لم يهرب ؟

قال لى : الهرب ذنب يساوى الكفر . فان هـرب وعثروا عليه يقتلونه . أين يمكن أن يختفى .. ويهجـر العيال ؟ ..

***

لم يهنأ عيشى بعدها ابدا .

كنت أبذل قصارى جهدى للنسيان ، فأعاود العمل والمرح والحديث والاستماع للغناء .. فان سـعلت زوجتى او تعثرت فى مشيتها اقتلعنى الجزع مما أنا فيه فاضطربت نفسى .

وقد كنت أبذل قصارى جهدى لامنع فكرى عـن الاسترسال ، واتجنب الوحدة ، واطرد مايطرأ على فجأة من أفكار ، واشغل وقتى كله بالعمل او باللهو .. فلا أعدم لحظات تذكر غريبة تملأنى كآبة .

كنت اصطاد الغزال مع الملك ، فسبقت الركب وراء الغزال ، واقتحمت بفرسى أخدودا ضيقا بسرعة خاطفة ، ولم تسعفنى من خطر شعابه الا مهارتى ، ورميت الغزال فأرديته ، فقال الملك لرجاله :

ـ انظروا جرأة عبد الله وشجاعته .. اقتحم الاخدود

كرجل لا يخشى الموت ..

فتذكرت بسبب كلمته ما أعمد الى نسيانه !

ولما كنا في الخيمة نستريح ، ونتناول المشروبات .. قال الملك : أنظروا هذه الخيمة صنعة ولدى عبد الله . كم هي جميلة ولطيفة ومزينة .. هذا رجـــل يحـب الحياة !

فتذكرت بسبب كلمته ما اعمد الى نسيانه !

زهدت في عملي ولازمت بيتي وزوجتي ... فـكنت استغرق في الحديث معها ، فان توعكت او اصابهـــا صداع اظهرت اللهفة على رعايتها ، فكانت تضحك وتقول لي :

ـ لم اكن احلم ان تحبني هذا الحب الجياش ياعبدالله. ان سعادتي بك وحبي لك يسموان فوق كل حد ..

فأخجل من نفسي واعطف على حديث آخر .

ومع الايام صارت خواطري تغلبني على امري وتمتنع على مجاهدتي أياها .. فاطيل الصمت ، او يسرح خاطري رغماً عني ، أو انفرد بنفسي فأخفق في الانتباه لما حولي او لمن حولي .

كنت اتأمل ذاتي ..

لقد صادفت الهلاك بكل الصور ..

اشرفت على الموت اكثر من مرة ، وشاهدت النـاس يموتون بأسباب مختلفة .

وما عرفت أني اتعلق بالحياة بهذه اللهفة التي تـكاد

تعلبني على امري ..

فاي شيء جرى لي ؟!

شجاعتي تتسرب من بين أصابعي ، وخوف المـوت يغشاني كما يغشي الجبناء أو الاغرار الضعفاء ..

فماذا بك ياعبد الله ؟!

اقول : لعل شبح الدفن بالحياة ، والموت البطيء تحت الارض ، أن يكون أكثر ترويعا للنفس من كل ماشهدت من ضروب الهلاك ! ...

ولكن الذي كان يملأني مرارة وانكاراً للذات عـواطفي اني لم اكن اخشى الموت لنفسي ، وانما كنت اخشى على نفسي من موت زوجتي .. وهو شعور جوهره خيـــانة الحب والتدليس العاطفي ، والاثرة الخبيثة ..

فكنت انكر على نفسي مالم اعهده من قبل في خلقي . وانظر لاميرتي التي أحبها فاكره افكاري واثرتي وخـوفي وابغض نفسي ..

ــ بالله عليك قل لي ماذا دهاك ..

ــ ماذا دهاني ؟

ــ منذ أسابيع وانا اراقبك .. تتصرف بغرابة .

ــ اتصرف بغرابة ؟!

ــ لا تردد كلامي كالببغاء ..

ــ لا افهمك .

ــ اتحسبني طفلة ؟!

ــ لست طفلة ..

ــ تعثرت فاصابك الهلع ، وتوعكت فاصابك الهم ، وما تناولت طعاما الا ذقته قبلي ..

ـ احبك .
ـ اسمت أراك سعيدا . الحب سعادة .
ـ أخاف عليك .
ـ اذا لم تقل لى ستمرضنى .
ـ بربك لا تمرضى .

ـ لابد ان تقول لى . وان كنت تحبني حقاً فلا تكتمنى شيئا .

احبها ، ولن تستقيم مشاعرى أو استرد احترامى لعواطفى الا ان اصارحها .

ـ منذ اسابيع ذهبت اعزى حداد معملى الذى ماتت زوجته . . فعلمت . .

ـ ماذا علمت . .
ـ بدفن الاثنين معا . .
ـ وماذا همك من ذلك ؟

ونظرت الى بعينين واسعتين ، فما ملكت الا ان اجيب مرائيا :

ـ اخاف ان مت فى بلادكم . .
ـ . . ماذا تخاف ؟
ـ أن يصيبك ما أصاب الحداد . . .
فصوبت سبابتها الى وجهى :
ـ كذاب !
ـ بربك . .
ـ حسبتك تحبنى .
ـ احبك . .

ـ بل تخشى على ان اموت فأحرمك الحياة .
ـ اخشى ان اموت انا ..
فغضبت وصاحت :
ـ لا تزد .. فما احببت انا ذلك المرائى الذى يحدثنى الان . ارى المرأة ان مات عنها زوجها تستعجل الدفن وتظهر الزهد فى الحياة ، اما الرجل ان ماتت زوجته لا يكف يستعطف الناس ويجأر بالصراخ ..
قلت : كلاهما ظلم .
قالت : ولكنك انت تجاوزت كل حد ، فقد اصابك الجزع من مجرد الخاطر والتصور . من أى عالم انت ؟! مثلك لا قلب له ولم يعرف فى حياته الحب . ربما ترمى من احببتها بعد السأم منها او تبيعها بالدراهم ، فأين لك ان تفهم أو تقدر حب ابنة الهند .. صدعت قلبي وامتهنت حبى فآه من غربتى فى بيت حبى ومن ضياعى !

وجرت من بين يدى تجهش الى خارج الدار ، وتبعتها فما ادركتها ، ورأيتها ركبت فرسها . وجريت وراءها اناديها فمن صياحي وبكائها حجم الجواد فسقطت على الارض فجريت اليها واحتضنتها وانا مخلوع القلب ونظرت فى عينيها فلم أر الا عتابا رقيقا أدمى قلبى فقلت :

ـ والله احببتك احببتك فوق ماتظنين يا وحيدة قلبى !!

فابتسمت ، ثم سقط رأسها على ذراعى فعلمت أنها ماتت ، واحسست كأن سكينا محمي شق قلبى ..

***

ماحدث لي بعد ذلك لا اذكره جيداً ..

فقد قضيت يوما وبعض يوم بين الاغماءة والافاقة ، ورأيت الملك يعزيني ، وغلبه الحزن فبكى أمامي .. ثم رايت حبيبتي راقدة علي محفة محمولة وهي بــكامل زينتها وعليها أجمل جواهرها .. ثم أحسست بنفسي ماشيا يكاد يحملني أصدقائي من فرط ضعفي ..

وعند فتحة المقبرة ادلوا بجسد حبيبتي والملك يتلطف بي ويربت على كتفي ..

ثم أدلوني في المقبرة بعد ان دفعوا بين ذراعي بكيس فدخلت الظلمة .. ولما أحسست بقدمي تلمسان الارض اغلقت فتحة الضياء فوقي وشملني الظلام ، فتحسست الارض تحتي وقعدت ساكنا محزونا .

علم الله ان حزني على حبيبتي غلب حزني على نفسي فذرفت الدموع هناك حتى تعبت فنمت .

***

افقت من نومي فلم ابصر شيئا في الظلام .

انتباهي .. جوعان ظمآن ، ومن حولي رائحة نفاذة .. تذكرت انهم أعطوني كيسا بين ذراعي فتلمسته وتحسست مابه ، وما أشد فرحي اذ وجدت به سبعة أرغفة خبز وبعض الزاد وقدر ماء ، فأصبت قليلا من كل شيء خوفا من نفاد الزاد ..

راح الذهول فجعلت اتامل ما انا فيه .

ان لم تقتلني رائحة الموت ، فسيعجل بموتي الجوع والظمأ ..

اعتادت عيناى على الابصار فى الظلام ، ووجدت الاجساد من حولى متراكمة فقمت افتش عن مكان بعيد منها وافسحت لنفسى مساحة سويتها بقدر امكانى لتكون مقامى ..

عجبت من نفسى بعد ان اشتغلت بهذا الامر ان اهتم براحتى وانا رجل مقضى عليه .

لم اعد اعرف نهارى من ليلى . ولعل هذا ان يكون السبب فى اكلى وشربى بلا روية او حساب .. فقد فرغ زادى بعد مدة .

او لعل يأسى من الحياة او حزنى قد اصابانى بالنهم حتى فرغ زادى ، كما اصابانى بهوس الجوع والعطش بعد أن فرغ زادى ومائى .. فرأيت فجأة رأى العين الشمس الساطعة على البحر الواسع وسمعت بالاذن صيحة القبطان : الشراع الكبير .. ارفع !!.. فضربت عينى واذنى بكفى حتى عاد يشملنى الظلام والسكون فهدأت نفسى .

ولكن فيضا من الضياء غمر الركن البعيد من المقبرة فجأة ، وسمعت اصوات البكاء ، فعلمت انهم يدفنون بعض الناس .. فتملكنى نشاط عنيف وقبضت بيد حديدية على احدى عظام الميتين .وانا أحملق فى الرجل الحى الذى يدلونه بالحبال وهو يحتضن كيس الزاد .

فلما اغلقت المقبرة وساد الظلام كنت أرى شبحه الحائر ، وعلمت انى سارتكب افظع جريمة ارتكبتها فى حياتى ، فجاهدت لاتمالك نفسى والتحكم فى أطرافى ..

ولكن نفسي افلتت من وثاقي واطرافي خرجت عن طوعي .. فرأيتني كمن يرى شخصا آخر منفصلا عنه .. انقض كعاصفة هوجاء على الرجل المسكين ، والشيطان نفسه يدفع ذراعي .. فهويت بالعظمة على راس الرجل فسقط يتخبط . وثنيت بضربه ثانية حتى تأكدت انه مات .. فانتزعت الكيس من بين ذراعيه وانسحبت الى موضعي البعيد كضبع كاسر .. فأكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ، وانا في غاية الفزع حيث علمت انى لم اعد املك من امرى شيئا ، فكأن شهواتي ماردا من الجن انفجر من ذات نفسي منفلتا من كل سيطرة لي عليه .

تصورت بعقل رجل آخر غير الرجل الذى يأكل ويشرب من زاد القتيل بهذا النهم ـ تصورت بعقل الرجل الاخر عثمان .. وقتله رفاقي في الجزيرة اللعينة فتعذبت وعصفت بي خيالات الهوس ، فلم يزدني صراعي مع نفسي الا تمردا وتوحشا وقسوة !

« سأعيش » .. كأن صوتا فوق صوتي يهتف بي . وانكرت الصوت !

لكني انتبهت فجأة .

احسست بشيء غريب يمرق .. فشددت قبضتي على عظمتي وسكنت تماما ..

كان حيوانا !

ما تبينت شبحه حتى عاجلته بالانقضاض عليه بعزم شديد .. غير انه افلت من ضربتي وجرى ، فتبعته غير هياب . الا انه اختفى !

نظرت يمينا ويسارا وفوقي فلم ار له اثرا ، ولكن شعاعا بارقا من عيني أثناء البحث فعلمت انى رايت نجمة فى السماء !

كان رجلا في الجحيم راى طيفا من الجنة !

انشبت اظافرى فى التراب بذلك الموضع كمجنون ، وقد قر فى ذهنى ان ذلك الحيوان قد دخل الى المقبرة وخرج منها من خلال حفرة .. أغرته بحفرها رائحة الموت واشتهاء نهش الاجداث .

حفرت الموضع فوقي فانهال التراب والحصى على وجهى وراسى ، ووسعت الحفرة حتى رايت السماء فوقي فوقعت على ركبتى وذكرت الله أطلب النجاة والغفران وفوق ظهرى مايثقل الجبال من الذنوب .. ثم قمت بهمة فوسعت الفتحة بما يسمح بمرور جسدى ونفذت منها الى الدنيا اشهق لاغترف من هوائها النقى بصدرى ، وصرت اقفز من الفرح حتى ادمى الحصى قدمى .. ولكنى لم اسمح لنفسى بالصياح او حتى بالهمس .. فقد خفت ان يكون المكان ماهولا .

شحذ خوف الاخطار كل ملكات الحيطة والحذر بنفسى ، فتسللت محاذرا هنا وهناك استطلع المكان فوجدته قفرا غير ماهول .. فقررت أن انام بقية الليل فى الهواء النقى ، ثم اختبىء بالنهار فى المقبرة .

غفوت حتى ايقظتنى اشعة الشمس فدخلت الحفرة وداريت فتحتها بحجر ، وكمنت فى مكانى انتظر الليل .

فى الظلام اضاءت بذهنى خطة للهرب .

خلعت ملابسي الثمينة وجمعت جواهري ووضعتها في كيس الزاد ومزقت قميصي وقررت ان اخرج في هيئة شحاذ أو ناسك ، واسعى لسرقة قارب في الليل ، واوغل في البحر والله المنجى .

سأحتاج الى زاد .

أتسول الزاد في طريقي ، او اسرق ما تتسنى لي سرقته .

لابد من المخاطرة ، فالقعود في المقبرة موت ، والقعود في هذا البلد سيعرضني للاكتشاف ثم الموت .

حين قدرت ان الليل جاء قمت اقصد الحفرة ، وانا قابض على كيسي وبه جواهري .. ولكن خاطرا ردني الى المقبرة ، حيث تذكرت انهم يلبسون الميت جواهره ..

كان الوحش القاتل قد ملكني فلم أستطع ممانعته . ورأيت نفسي اقلب الاجداث كاللص وانزع ما عليهـا من جوهر واضعه في كيس ، وأجمع ماتناثر في التراب من جواهر ومعادن وحلى بهمة الغريق يدفع الماء بذراعيه ، ونفسي تنكر على ما افعله ولاتكف .

ولكن قدمي كانتا تتخبطان ويداي ترتعشان .. وانا أدوس فوق الميتين واقترب من جدث حبيبتي .

كانت لحظة خطيرة وكنت اندفع اليها ..

كانت ضربات قلبي تزداد عنفا وانا أقترب من حبيبتي حتى ضميري كان يدفعني بعد ان كان يمنعني كأنه يدفعني للانتقام مني ..

لما رأيتها .. جاشت عواطفي فارتميت على جسدها

ابكى واهتف باسمها واقبلها قبلات الندم واطلب الصفح واسأل الله لها الرحمة .

كانت باردة كالثلج .. مفزعة كالموت .

وخلعنى الخوف فجريت حتى خرجت من الحفـرة كطفل مروع .

مضت ساعات قبل أن اثوب الى نفسى .

فلما أفقت الفيتنى ماشيا فى الليـل ، أحمل كيس جواهرى على كتفى كما يحمل الشحاذ كيسه على كتفه .

وجدت شجرة فانتزعت منها فرعا واتخذته عصـــا اتوكأ عليها ..

زدت شعرى تهويشا وزدت وجهى تلطيخا بالتراب وانطلقت ابحث عن زاد وماء .

ولما استطبت برودة هواء الليل .. ومضيت بذهنى خاطرة عجيبة .. وهى أنى لم اكن فى حياتى ابدا غـير هذا الشحاذ السراق الرث الفظ المتوحش المسكين .. احمل جواهرى على كتفى واطلب حياتى من الموت ، وزادى من الجوع ومائى من الظما ، ونجاتى من العاصفة وسعادتى من الشقاء والعدل من الظالمين .. كمن يطلب الماء والزرع من الصخر الصلد .

قطرة ماء

قضيت يومين اسعى فى ريف المدينة ولا اجرؤ على دخولها حتى لايتعرف على أحد ممن خالطـــت مـــن اهلها ..

ولم اتوان عن سرقة بعض البيض من اعشاش الطيور او بعض الخضر من الحقول تحت ستار الليل ، وكلما امنت ...

ولكن بعض الفقراء كانوا يحسنون الى فى الطـريق بكسرات خبز آكل بعضها واضع بعضها فى كيسى مـع الجواهر والذهب .

ولما رايت الناس يعاملوننى كشحاذ خطرت لى فكرة .. ان اشحذ خبزى فى المرفا وانتظر وصول ســـفينة عربية فاتسلل اليها فى جنح الظلام .

وركبنى الهم والخوف من ان تضبطنى الشرطة وترددت كثيرا .. بسبب لكنتى واعوجاج لسانى فى لغة البلاد ولكن امل النجاة دفعنى الى المخاطرة ، وظننت انى استطيع اصطناع الخرس فلا اتكلم ..

جلست فى المرفا جلسة شحاذ ولما عبر بى النـاس واحسن بعضهم لى أفرخ روعى .. ثم استقر بذهنى ان الناس لابد ان تصدقنى ، ولا حاجة بى للخوف .. حيث

انى فعلا شحاذ .. ومهما كان فى كيسى من جواهر ، ومهما كان فى خزانتك من مال .. فأنا شحاذ ، ونحن فى زمن الشحاذين .

اليس هذا عالمنا الذى نعيش فيه ؟

وهل نحن الا الشحاذون ؟

وها أنا جالس على حافة الماء أنتظر سفينة عربية تحملنى من مدينة قضت على بالموت ، وتمر بى الناس لا تكاد تنظر لى أو ترآنى .. ولكنها تزيد همى حيث تشبه الناس فى بلادى فتثير حنينى .

اتشبث بالحياة ، واتذكر أيامى نادما على اغترابى وسفرى من بلادى .

ولماذا اسافر ؟

شىء ما بنفسك ياعبد الله يرميك رغما عنك فيما تكره ويدفعك للهلاك ..

شهوة كامنة للانتحار وقتل النفس ..

وفى صدرك لهب لا ينطفىء ، يؤججه بدواع واهية .. الغضب العاصف ، والقنوط العميق ، والحنق المستعر ، واوجاع تصرخ ، وقلق مستبد ، وشهوة جياشة لعدم التلاؤم ومجافاة الرضى ومجانبة النسيان ومخالفة القناعة بما قسم لك !

فمن اين هذا اللهب العربيد فى قلبك ؟!

وكيف تركته يرعى أيامك ويهلك نفسك ؟!

انت مظلوم الا أنك لم تتحرز من ظلم غيرك ، مجنى عليك وجان ، سجين وسجان ، مقتول وقاتل .. فلم

تتنكب الاخطار وتجار بالرفض وتتلهف على النفى والخروج .. كلما واتتك فرصة للعودة والاستقرار ؟!..

رست سفينة عربية فى الميناء ، ونزل التجار والبحارة يبيعون ويشترون ، فانتظرت حتى جن الليل وتسللت على السقالة فضبطنى البحار الحارس وكاد يصرخ الا أننى وضعت يدى على فمه وجرته الى سطح السفينة وقلت له بالعربية .

ــ أنا ملاح عربى وأريد ان اقابل القبطان .

ــ نائم .

ــ ايقظه .

وجرته الى قمرة القبطان وفتحت الباب فهب القبطان فى فراشه يقول :

ــ من تكون ؟

قلت له : أنا ملاح عربى تزوجت هندية فلما ماتت دفنونى معها ولكنى هربت من القبر ولجأت اليك

فما ازدادت عيناه الا اتساعا ..

قال : أعد على ماقلت .

فأعدت وزدت ، وهو مصدق ومكذب .. خائف ومطمئن .. قلق وحائر ..

قال : اثبت لى هويتك ..

قلت : ياريس .. هويتى لسانى وعليك أن تسلمنى قاضى البصرة فهو الذى يعرفنى .

قال القبطان للبحار :

ــ احبسه فى مخزن التجار حتى تبحر السفينة .

قضيت فى المخزن يوما وبعض يوم وأنا خائف ، فلما

اهتزت السفينة علمت انى سالم وان السفينة سرعان ماتبلغ البحر العميق فى طريق النجاة .. فنمت :

ايقظنى البحار وقادنى الى غرفة القبطان الذى اكرم وفادتى واطعمنى وسقانى .. وبعد ان استرحت بدلت ملابسى وحكيت له بعض حكايتى فصار يقلب راسه وانا لا اعرف ان كان صدقنى ام لا . ولكنه بعد ذلك صحبنى الى عنبر الركاب وقدمنى الى جمعهم بقوله :

ـ هذا رجل يقول انه تاجر عربى من البصرة ، وان اسمه عبد الله بن عثمان وشهرته السندباد ، وسافر من بلاده منذ عامين ، فان كان عند احدكم اخبار من بلاده وتخصه فليخبره بما يهمه ..

انهتف احد التجار :

ـ اعرفه .. لعنة الله عليه .. الست الرجل الذى كان يحب المغنية بخان البصرة « جوهرة » واهانها فشغبنا عليه ؟ ..

فاطرقت محرجا بينما قام الرجل يربت على ظهرى متلطفا وهو يقول :

ـ لا تنقم علينا لما فعلناه تلك الليلة .. اتعفو ؟
وضحك وهو يضمنى بعطف اخوى .

***

تلقانى جابر صاحب الخان بشوق ..

وتذاكرنا طويلا ماكان بيننا من حكايات المودة ، وحول اخبار زبائنه .. فقال فجاة :

ـ فرت جوهرة من البصرة بعد رحيلك من فـــرط ما استعر حولها من تنافس أدى الى نزاع ومشاجرات .. فآثرت السلامة واختفت ليلة ان وقع حادث ادى الى تدخل الشرطة ..

ـ وهل أصابها مكروه ؟

ـ هي لم يصبها اذى . ولكن شابا ثملا أثقـل في الكلام تلك الليلة واحتج عليه الزبائن فشهر سكينا ودارت معركة سالت فيها الدماء .. شيء لم يكن يحدث في الايام الحلوة الخالية .. قبل ان يثرى الصعاليك والسوقة من تجارة البحر وسلع الترف ويشغبون على أولاد الاصول ببجاحة وأدعاء وتبذل لم نكن نتصور في الزمن الخالى ان يكون من صفات الاثرياء ..

تنهدت وقلت :

ـ تمنيت لو انني استطعت ان انتزعها تلك الليلة مما هي فيه من مخاطر ..

ـ وهل كان كبرياؤك يسمح لك أن تبقى في الخان بعد ان اثارت الناس عليك ؟

ـ تعسا للكبرياء . لقد أحببتها .. وكان بوسعي انقاذها .

ـ وهل كانت تحبك .. هذا هو السؤال .

ـ كل امـــــرأة يطيب لها الاستقرار .. لعـن الله استكبارها .

ـ وكل رجل يطيب له الاستقرار .. يقولون ، فهل يطيب لك إنت ؟

ـ لست مثلها .. فانا

ـ ولم لا . لعلك تحبها لانك مثلها .
ـ قاتلك الله ياجابر .. فانت تعلم انى مثلها ، وانى لذلك اريدها ..

***

كنت قلقا استعجل العودة إلى بغداد ..

كنت اريد ان اختلى بنفسى بين جدران بيتى فى الكرخ اتامل حالى واندم على مااقترفت من ذنوب فى حياتى واناجى ربى .

فما اطعت جابر اذ الح على ان انتظر اكتمال القافلة الشاخصة الى بغداد ، وامرته أن يأتينى ببعض الحرس والمئونة .

ـ الايام اختلفت ياعبد الله ، واصبح الطريق غير مامون ..

قلت : لا عليك من هذا .

فقال : لقد عم الجفاف واحترق الزرع ، وهاجر الفلاحون الى المدن يطلبون الرزق حيث ازداد الاغنياء غنى ، وتجمع الاشرار فى عصابات تهاجم القوافل الصغيرة .. فلا تخاطر بنفسك .

ضحكت من النصيحة ماشاء لى الضحك .

أكتريت ثلاثة جمال وبعض الحراس وانطلقنا فى البادية .

كان الجو لطيفا ، وامتداد الصحراء اشاع بنفسى طمانينة وهدوءا ..

وذات يوم رفع حارس يده وصاح :

ـ حذار .. اللصوص .

نظرت حيث يشير فرأيت جماعة من الفرسان على خط الكثبان مقبلين نحونا .

قلت : مامعنى ذلك ؟

قال : سيهاجموننا .

قلت : لعلهم مسافرين فى حال سبيلهم .

ونشط الرجال فوضعوا الجمال بينهم واحاطوا بها كدائرة مسلحة ، وقال رئيسهم لى :

ـ ادخل فى الدائرة ياعبد الله .

قلت : والله لا افعل .

وسللت السيف وكنت على راس المدافعين ساعة دهمنا الهجوم ، واحد الحراس ينفخ نفيرا عاليا مزعجا استثار فينا الحمية فحملنا على الاشرار حملة رجل واحد ، وسقط الرجال من الجانبين ، واحسست تخاذل رفاقى فقصدت من ظننته رئيسا للصوص وله وجه بشع بشقه ندب غائر فحملت عليه ، واصبته واصابنى اصابة خلعتنى من فوق الفرس فتشبثت بسيور المقود بينما الفرس يسحلنى فوق الرمل ، وسمعت خصمى يصرخ صرخة الظفر ،واحد حراسى يصيح :

ـ النجاة النجاة ..

وكان صوت النفير المزعج آخر ماسمعت قبل أن يغشى على ، والفرس يسحلنى على الرمال الناعمة .

خيل لى انى أسمع اصوات النفير تتجاوب من كل صوب ، ولكنى لم اكن اقوى على تحريك اعضائى ..

احسست انى راقد على الرمل مستوى الجسم ؟

وسمعت اصواتا تتحدث .
شيخ يقول : انظرى من جاءنا من الضيفان يا شمس .
وامراة تقول : رجل جريح ياعم ، وجرحه نازف .
قال الشيخ : أسقيه شربة ماء واغسلى جرحه .
فقالت المراة : لم يبق عندنا غير قطرات من الماء فى هذا الجفاف اللعين .
قال الشيخ : لقد صارت اذن من نصيبه .
قلت لصاحبة اليدين اللتين تلمسان جرحى :
ـ « حياة » ..
وعجبت انى لقيتها ساعة احتضارى فى الصحراء .
كانت عيناى غائمتين ، ولكن انطبع فيهما شبح لخيمة خلقة ، وعلى بابها شيخ ثابت النظرة الى الامام كأنه أعمى وبيده مسبحة .. ووجه حياة يميل فوقى ، ويداها تبللان جرحى وشفتى .
حاولت النهوض فلم أستطع ..
حاولت الكلام فلم أنبس ..
حاولت ادارة وجهى لانظر حولى فما قدرت ..
ومع ذلك سمعت الشيخ يقول :
ـ من القادم ياشمس ؟
قالت « حياة » : الشرطة ياعم .
وسمعت وقع حوافر الجياد .. وصوت رجل يقول : انت عبد الله بن عثمان السندباد صاحب القافلة ؟
حاولت الكلام فلم استطع ..
فقال الشرطى : افق ياسيد .. فقد حفظنا لك

مالك ..

قالت حياة : جرحه غائر دمه ينزف ..

وقال الشرطى : أدركنا القافلة وقبضنا على اللصوص وانقذنا له ماله .. فلابد ان نحمله معنا .

أردت ان اقول فلم استطع النطق :

ـ مال الميتين . كل مال في الدنيا هو مال الميتين .. من لم يسرق الاحياء فهو سراق الميتين !

وسمعت الشيخ يقول : اين يذهبون به ؟

وايديهم تحملنى من كل أطراف جسمى ..

قالت « حياة » : حفظوا على ماله ياعم ليغنيه غنسا .

وقال العجوز : الله كريم .. حيث دبر له بضع قطرات من الماء فى وعائنا .

وشعرت باهتزاز جسدى ، وأعترانى خوف من السقوط .. فتحت عينى بصعوبة فرايت انى محمول على سحفة سويت فوق الجمل ، مربوطة بسيور ..

حولى بعض الحراس الذين كانوا معى ، وبعض فرسان الشرطة يرمحون حولنا بنشاط .

وخلف الجمل الذى آستويت عليه رجل يتعثر .. قد ربطوه من رسغيه فى ذيل الجمل ، وجهه بشع ويشقه ندب غائر ، وعيناه متحجرتان ..

احسست بالغثيان . لكن الشرطى اقترب منى وعلى وجهه ابتسامة الظفر ، ولما راى عينى تطرفان قال لى :

ـ مالك اعدناه لك .. وقبضنا على السراق .

خذلتنى قواى فلم استطع القول :

ـ مال الميتين . كل مال فى الدنيا مال الميتين .

من لم يسرق الاحياء فقد سرق الميتين ..

***

قضيت شهورا والطبيب يعالج جراحى ..
كنت اتماثل للشفاء ببطء
غير ان شيئا واحدا استبد بخواطرى ..

كنت قد دعوت القاضى الى بيتى ، فور أن استطعت استقباله ، وكلفته أن يبحث في الموضع الذى هاجمنى به اللصوص فى الصحراء عن شيخ زاهد اعمى وربيبته التى سماها « شمس » .. ولعل ان يكون اسمها « جوهرة » .. أو « حياة » .. فانى رصدت مائة الف دينار وهبتها لهما على قطرة ماء بذلاها لى بسنجية طيبة وانا احتضر ، فحفظت لى حياتى .. فى الموضع الذى هاجمنى فيه اللصوص ..

بعد شهور زارنى القاضى ..

قال لى : كلفت رجالى البحث عن صاحبى الهبة ، ومسحنا الموضع الى عشرات الفراسخ فى كل اتجاه ، واستعنا بشهادة رجال الشرطة الذين حملوك وانت جريح .. فلم نعثر الا على شيخ زاهد اعمى ، انكر ان امرأة كانت معه ، وشهد انه رأى الشرطة تنقذك ، ولكنه أنكر انه اشترك فى ذلك .. ولما اغريناه بالاعتراف بحديث الهبة ضحك وقال : ان كل مال عبد الله لايشترى قطرة ماء فى هذا الجفاف لو نفد الزاد !

الححت على القاضى أن يوالى البحث عن « حياة » .. وعن شيخها الغامض ، وبذلت مالى رخيصا لاسترجاع

هذه اللحظة واهلها .. من بين كل لحظات حياتى .
وكلما مضت الايام يذوب أملى فى العثـور عليها ويزداد ضيقى وبرمى ..
لم أعد أهنأ ببيع أو شراء ، بغناء أو بسمر ..
لا اعلم ما الم بى وما يستبد بنفسى من مشاعر متناقضة ..
وجدت نفسى فى البصرة ، وفى خان جابر نشرب الشاى ونتسامر .
قال لى جابر :
ـ حسبتك لن تعود الى ركوب البحر ..
فقلت : وانا كنت اظن انى لن أعود الى ركوب البحر .
ـ ماذا يجعلك تضيق بما انت فيه من راحة ويسر ! الذى يضنيك ؟
فاطرقت اتأمل السؤال ..
وسالت نفسى : اعندك ياعبد الله الجواب ..
نحن نتاجر فى الجواهر والمعادن الثمينة ، والبدو يموتون من الجفاف ، فهل يثير عجبنا ان تلعننا السماء ، حتى نرى بعيوننا الاشباح ، وتتلبسنا شياطين القلق ؟

الغول

دبرت متجرا وابحرت في دنيا الله ..

طابت لنا الريح شهرا ، وشغلني عن همي رفاق السفر فهدات نفسي وعدت الى مرحي ونشاطي ولهوى بالسمر ولعب الشطرنج . .

وذات يوم سمعنا صيحة للقبطان فوق ظهر السفينة :

ـ نزل الشراع الكبير ..

جاوبتها صيحات البحارة :

ـ الشراع الكبير .. نزل .

فاندفعنا نستطلع الخبر ، وكان البحر هادئا والريح رخية .. فقال القبطان لنا :

ـ لا تضطربوا يا اهل الله ، فليس الا كسر بذراع الدفة سيجرى اصلاحه في الحال .

فلما خلعوا ذراع الدفة انقطع عزم السفينة فسار الموج يدفعها ويجرفها كيف يشاء ، وخاف القبطان أن يفقد السيطرة تماما فصاح : القوا المراسي كلها !

ولما القيت المراسي ثقلت حركة السفينة في البحر ، وصارت تقاوم للثبات .

ولكن « الناظور » فوق صارى الشراع صـــــاح : « جزيرة ! » .

فالتفتت جميع العيون الى حيث يشير .. فكأننـــا

رأينا النجاة باعيننا . وصاح القبطان :
ـ مجاديف اليسار .. وادخلونا فى مياه الجـــزيرة الهادئة ..
وانحرفت مقدمة السفينة نحو الجزيرة ، فقال احد الركاب :
ـ اية ارض هذه ؟.. ألله يسلم !
قال القبطان :
ـ لا اعلم اية أرض هذه ، فهى خارج مسارنا الطبيعى ، ولكننا سنرسو هنا حتى صباح الغد لاصلاح الدفة ، ويحسن أن نستطلع الحال ..
فلما دخلت السفينة المياه الضحلة قال القبطان :
ـ يامعاذ . خذ عشرة رجال فى قارب واســتطلعوا شاطىء الجزيرة بحذر حتى نقضى الليل باطمئنان .
لا اعرف مادفعنى ان اقول :
ـ دعنى اذهب معهم ياريس ، فانى عليم بجـــزر المحيط .
قال القبطان :
ـ لا بأس . وانفخوا النفير فى حالة تعرضــكم لاى خطر .
اطل علينا الركاب والبحارة من فوق ظهر الســفينة ونحن بالقارب نقترب من الشاطىء .
فلما وصلنا الى الشاطىء نزلنا يتقدمنا معـــاذ ، الذى قال :
ـ لا تنتشروا . لنتحرك سويا . اتبعونى .
مشينا خلفه ، والى جانبه بحار قد علق النفــير فى عنقه ..

اخترقنا حرشا كثيفا فانقطعنا عن رؤية السـفينة وانقطع من فوقها عن رؤيتنا ، ومشينا مسافة ننظـر حولنا بحذر . .

ـ جواهر !

صاح حامل النفير فرفع معاذ ذراعيه آمرا بالوقوف فجمدنا ورمينا بصرنا حيث اشار حامل النفير . .

كانت تلمع امامنا فى ضوء الشمس كومة منسقة مـن الماسات واللآلىء نظمت بهيئة عجيبة . .

همس أحد البحارة : هذا كنز . . آلا ان له صـاحب نسق حجارته بعناية .

قال معاذ :

ـ ما الذى يحيط بالجواهر ! كأنه بيت !

فتاملنا مايشير اليه وتعجبنا منه . . فقد كان يحيط بالكنز سيقان غليظة من البوص ليست متصلة كالحائط وليست متفرقة بحيث يمكن النفاذ من خلالها . . ولكننا راينا فيما أمامنا من سيقان البوص فرجة كانها باب او نجوة . وكانت الاغصان واوراق الشجر متشابكة حول سائر السيقان بحيث لم نتبين تفاصيل هذا العش او البيت او الصندوق العجيب . . فلبثنا ننتظر ما يقول معاذ .

وشوشة الهواء للشجر عن يمين دارت لها ابصارنا ، وقد تيقظت كل حواسنا . .

لا شىء .

فباشارة من يد معاذ . . تقدمنا كتلة واحدة نحو الكنز ونحن نتلفت بانتباه . .

ما أن وصلنا عنده حتى احطناه كالحلقة وانحنينـا

نمد الايدى لنلمس الجوهر وقد بهرنا ضياؤه .

صوت عنيف انتزعنا من جلودنا ، حيث راينا بابا من جنس سيقان البوص يعلق الفجوة التى دخلنا منها ويدين عملاقتين تربط الباب بحبل سميك !

ومن بين الاغصان وسيقان البوص راينا عينين لامعتين في حجم البوص طستين كبيرين ، يتوسطان راسا بشعا لا تسعه الغرفة المتوسطة ..

ازاح الغول العملاق اغصان الشجر حول بيت البوص ونهض على قدميه فاذا راسه كانها فى السحاب ، وحمل البيت بيده فارتج حتى ترنحنا وسقط بعضنا فوق بعض صارخين من الرعب .. وقد ادركنا انه يحملنا فى قفص محكم بعد ان استدرجنا لدخوله ببريق الجوهر ..

نفخ حامل النفير نفيره فارسل صرخة متصلة متلهفة حملتها الريح حتى ترددت أصداؤها من حولنا ..

ولكننا لم نسمع خلاف النفير واصداءه الا وقع اقدام الغول وتكسر الاغصان وعواء الضباع من بعيد ، وكأن الحادث الرهيب قد استنفرها فتبعت صائدنا من بعيد وتنادت بامل ان تتسقط فى اثر الصياد فتات الصيد بعد الفتك به !

سمع أهل السفينة النفير ، فتطلعوا ناحية الصوت .. وبعد وقت راوا الاشجار تهتز والاغصان تفترق ثم برز العملاق هائلا يحمل القفص ونحن فيه متجها صوب البحر ، يقصد السفينة ..

سقط الناظرون من الهلع .. الا ان القبطان صاح من فوره على البحارة :

ـ مجاديف اليمين واليسار .. جدف !.. ابتعد عن الشاطيء ..

واخذت السفينة تبتعد ببطء ، والمجاديف تعمل فى الماء بهوس .. الا أن العملاق كان يقترب منها بأسرع مما تريد السفينة أن تبتعد عنه ..

وضع الغول قدما فى الماء فثار الموج ، ومد يده لصارى السفينة فلم يدركه .. فلبث يفكر لحظة . ثم لامر ما عدل عن ملاحقة السفينة وقنع بغنيمته فى القفص وقفل عائدا الى الاحراش ..

كنا فى القفص نترنح ونحاول الثبات ، والقفص يتطوح فى يد العملاق .

الا أن جناننا قد طار ، وركبنا الهلع ، فتخبطنا بلاحول ولا قوة ..

قال معاذ : لقد ابتعد بنا جدا عن البحر ، فخطوته نصف فرسخ .

وقلت : لقد وصل الى مكانه وهذه ناره .

ساحة واسعة بين الاشجار ، لعله سوى ارضـــها بيديه ، واوقد فى وسطها نارا عظيمة .. حطبها اشجار كاملة ، يرتفع منها الى عنان السماء دخان خانق .

والى جانب النار كومة من الاغصان واوراق الشجر ..

وضع الغول صندوقنا على مسافة منها وركع جنبهـــا وكشف بعض الاغصان فراينا تحتها الوجه البشع للغولة وليفته ، التى كانت راقدة تحت الاغصان مريضـــة فيما يبدو ..

ربت على راسها بحنان وزأم لها وزامت له ، فـكأن

قصف الرعد جمجع فى الفضاء ، ثم اطمأن الى غطائها ومال على النار ينفخ فيها فكأنه أثار عاصفة ارتفعت لهـا السنة اللهب حتى لفحتنا حرارتها من بعيد ، وصار لها ضياء عظيم .

***

اشار تاجر فوق السفينة باصبعه وصاح :

ـ حريق !

فقال القبطان : بل هى نار الغيلان .

فدق التاجر صدره وشهق :

ـ ايشوون رفاقنا لياكلوهم ؟!

فزجره القبطان بنظرة صارمة وصاح :

ـ أطلقوا ادوات النفير بلا انقطاع .

فكل من كان من البحارة يحمل النفير نفخ فيه .. حتى اتصل النداء ..

***

سمعنا نداء الرفاق فوق السفينة ، ومعناه ألوعد بتدبير الانقاذ .. ولكن المصيبة كانت أفدح من غراء الرجاء .

فقد عاد الغول الى ولفيته فقعد جنبها ، وتناول بيده الماء من قدر كبير وصار يبلل جبينهـا وهى تتنهد باسى .

صاح احد رفاقنا البحارة :

ـ ياسبحان الله ! كل هذا الحنان ثم ياتى الينا لياكلنا ..

وسرعان مانهض الغول مقتربا من القفص ، فتفرقنا من الهلع وهو يرقبنا بهدوء . وصاح رجل :
ـ الى السلاح يارجال !
فلولا مانحن فيه من كرب لكان لندائه وقع السخرية ، فماذا تفيد السيوف والسهام في غلظة هذا الجبل العملاق ..
ومع ذلك شهر أكثرنا السيوف من ذهولنا ، وفتح الغول باب القفص فتحة محدودة تسمح لكفه بالنفاذ اليه وصار يتلمسنا باصابعه ، ويقلب الواحد بعد الاخر يقيس لحمه وشحمه ، ثم يدعه الى غيره ، ونحن نضرب أصابعه بسيوفنا فلا تصيبه بأي خدش ، ونتشبث بالابتعاد فلا نقدر على الافلات من يده .. حتى اختار أحد البحارة فأخذه وهو يصرخ ووضعه تحت اصبع قدمه ريثما يغلق باب القفص بالحبل .
برق في ذهني خاطر فانتزعت من كتف معاذ جعبة اسهمه وصحت به : احملني ..
وقفزت فوق كتفه ، فلما ادخل الغول الحبل بين اعواد القفص واراد أن يلفه ليخرج طرفه من بين أعواد الباب .. الصقت جعبة السهام بين الحبل والبوص فلف الغول الحبل حولها وربط ومضى برفيقنا الذى سكت صياحه حتى غلبنا الظن انه غشى عليه من الفزع .
تطلع الى معاذ يسالنى فقلت له :
ـ اذا انتزعنا السهام من جعبتها سيتخلخل رباط الحبل وربما أستطعنا ان نحله ونهرب ..
أخذ الغول البحار في يده فعرضه على وليفته التى

اغمضت عينيها باعياء ، وتناول هو سيخا مصقولا من الزان وحرق به جسد المسكين الذى افاق ليطلق صرخة اخيرة قبل الموت .. ثم سكت .

وضعه الوحش فوق النار واخذ يقلبه ، ورفاقنا فى القفص عراهم التشنج وهوس البكاء .. وشعرت أنا بقواى تنهار فسقطت على الارض اخفى عينى بيدى ..

اى موت ردىء .. وهانحن ننتظر مصيرنا كل فى دوره !

كان معاذ أشجعنا فأهاب بنا :

ـ تماسكوا أيها الرفاق فلابد من العمل ..

فهب اكثرنا واقفين يتساءلون ، فبدأ معاذ بالصعود على كتف احد البحارة ، والتعلق باحد سهام جعبته حتى انتزعه من مكانه وسقط به على الارض .

كان أفراغ الجعبة من سائر السهام آسهل ، فلما انتهينا من ذلك جذبنا ربطة الحبل الى اسفل ، ولما صارت فى متناولنا اعملنا فيها السيوف لتقطيعها ، وتناوبنا على هذا العمل الشاق ساعة ..

فسخ الغول رفيقتنا واكل واطعم رفيقته وتجشأ .. وكرع الماء واصدر اصواتا بشعة ، ثم افسح لنفسه جنب رفيقته ونام فصدر عنه شخير مخيف .

اسدل الليل عباءته على الدنيا ..

وجمع القبطان فوق السفينة عشرة من اشجع البحارة قلبا ووضع على رأسهم مساعده على العمارى واوصاهم قبل النزول الى قاربهم :

ـ كونوا على حذر . وانظروا أولا ان كان انقاذ رفاقنا ممكن ، فانى لا أريد ان اضيعكم بلا شىء . أن كان

بالجزيرة الكثير من الغيلان فعودوا بسرعة . افضل عندى ان تعودوا يائسين من ان تهلكوا دون ان تفلحوا فى انقاذ رفاقكم . تسللوا متسترين بالظلام فى غاية الحذر ولا تشعلوا المشاعل فى مسيركم .

خذوا النفط . استخدموه للدفاع وللهجوم ، واحذروا كمائن الغيلان فهم اذكياء كالبشر فى نصب المكائد . والله معكم .

وعلى الشاطىء تكلم على العمارى فى رفاقه ناصحا : اوصيكم بالصمت والسكون والهدوء . لا تتفرقوا . سنمشى كتلة دائرية لنرى فى كل الاتجاهات .. واتجاهنا نحو النار .

وتقدموا هكذا شاهرى السلاح ، دون اية جلبة ، وفى وسطهم اربعة بحارة يحملون جرتين مليئتين بالنفط ، متجهين فى كتلة واحدة صوب وهج النار .

***

انقطع الحبل ، فلاح لنا أمل الحرية ..

قلت لرفاقى :

ـ اذا فتحنا الباب عنوة وجرينا فربما أنتبه من نومه ، وسيسهل عليه جمعنا والفتك بنا ..

قال معاذ : فما الرأى ؟

قلت : لابد ان نصيبه أصابه تعوقه ..

قال أحد البحارة : فلنجرب حظنا والسلام .

قلت خطوته فرسخ ، ولن نصل الى الشاطىء قبل وقت .

ونظرت فى عيون الآخرين ..

وقرات فيها بوضوح ما امتلأ به قلبي من رغبـــة في الانتقام !

همهم بعضهم : نعم . وكيف ؟

قلت : بأسيافنا في ناره ذاتها .

قال احدهم : لم تخدشه سيوفنا .

قلت : في عينيه ، بسيوفنا متوهجة من النار .. لن يطاردنا وهو أعمى .

قال معاذ : أنا رجلك ..

وقال آخرون : وانا .. وانا ..

قلت : وانا احدكم ، ولكن اربعة ، نهاجمه كل اثنين من جهة حتى لاندع له فرصة للافلات . وليختبىء الاخرون في الاشجار ..

أمتلأ قلبي بروح العدوان ، وتقدمت مع رفاقي متصلبي الاعضاء الى النار فوضعنا فيها سيوفنا .

وتقلب الغول وزام فارتعشنا من الهلع .. الا ان أيدينا كانت ثابتة على السيوف .. حتى احمرت النصـــال وتوهجت ، فأشار بعضنا الى بعض ، وتسللنا نحوه من الناحيتين ، وكان راقدا على ظهره يغط فرأينا أن يقف الواحد على اكتاف الاخر ، فعندما استوينا انا ومعاذ فوق رفيقنا صحت به : الان !

فدفع كل منا سيفيه باليدين في العين ! وصـدرت صرخة سقطنا من هولها على الارض .. وجرينا متفرقين صوب البحر .

قام الوحش وقامت وليفته فرأت وجهه يتفجر بالدماء وهو ينتزع السيوف من عينيه ، ثم قفز واقفا واندفع

يصرخ في يأس ، ووليفته تتعلق به وتسقط من الاعياء .
ثم ركع على ركبتيه يتحسس وجودنا على الارض فلما لم يعثر على احد منا توعدنا بالصراخ ، وحثت رفيقته التراب على راسها ، ثم نهضت تبحث عنا بعينيها فى الظلام وتعلنه انها تنتقم له ..

تفرق جمعنا بين الاشجار وقد خلع الرعب قلوبنا ، وتقدم الغول ووليفته وراءنا نحو البحر ، فندمت على مافعلت حيث تغلبت شهوة الانتقام على حكمة الراى ، وايقنت باليأس من النجاة وانا أجرى كالمجنون ، والمح رفاقى يجرون متفرقين كالمجانين .

وفجاة .. لمحت جماعة على والبحارة ، الذين بوغتوا بنا ، فجذوا فى مكانهم ..

احسوا بنا نجرى هنا وهناك ، كما أحسوا بمطاردة الغول لنا مما أحدثه ووليفته من جلبة . كانت أقدامه تدق الارض كالطبول ، وهو يقتلع الاشجار فى طريقه ويقتحم الاغصان ويصرخ من الغضب ، ووليفته تنادى عليه وقد أعياها الانفعال فهى تمشى خطوة وتقعد تولول برهة ، ثم تنهض من جديد .

صاح على : جهزوا النفط واشعلوا المشاعل .

انما ان هيأ البحارة قدرة النفط حتى ظهر الغول امامهم فهالهم قوته وغضبه وارتعدت فرائصهم من هول منظره وانهمار دمه . لكن على صاح :

ـ اشعلوا الفتيل وتفرقوا .

فأشعلوه وتفرقوا ، وخطا الغول خطوة نحو ماسمعه

من اصواتهم فصار فوق القدرين لحظة انفجارهما فغمره رشاش اللهب وتعلق بكل انحاء جسده فأخذته الحيرة واستبدت به آلام الحرق !.. لحظة ثم انتبه فجرى نحو البحر يلتمس اطفاء النار .. فلما وصل الشاطىء كان كتلة من الحريق القت نفسها فى الماء فارتفع الموج حتى غمر سطح السفينة واكتسح ساعليها وكل من عليها ولم يتعلق بشيء ثابت ، فلما انداحت الموجة واستوت السفينة نظر من عليها فرأوا الجسد العملاق بلا حراك يطفو على الماء .. فأمر القبطان بالنداء بالنفير على رجساله ، الذين كانوا يجرون هنا وهناك بين الأشجار يلتمسون الشاطىء بكل ثمن .

وصلت الشاطىء بشق النفس ، ورأيت شبح السفينة فى الظلام واضحا وسمعت النفير فقعدت أتنفس الصعداء ..

والتفت يمنة فرأيت الغولة تبكى وتعول فوق جسد رفيقها وتجذبه نحو الشاطىء ثم تنحنى لتمسح وجهها فى جسده المحترق بحنان عميق !

فتعجبت مما عاينت من روع وغضب ، من خوف وشهوة للانتقام ، من ضعف واقدام وقسوة ..

وتعجبت مما رأيت فى الغيلان من وحشية ورقة ، من قسوة وحنان ..

ولما اكتمل انقاذنا واجتمعنا فوق السفينة ، صار كل رجل يحكى للاخرين ماعنده .. الا انا ، فقد شملتنى مرارة واستبد بى الضيق حتى زهدت فى الكلام وعافت

نفسى الحدث ، ولم أستطع ابداً أن انسى انني كنت على يقين من اننا كنا نستطيع الفرار تحت جنح الظلام دون أن نصيب الغولين بالكارثة ، ومع ذلك فقد قلت لرفاقى غير ذلك ، وارادوا أن يصدقونى بكل تعمد .. لا تحركهم الا رغبة جامحة فى الحاق العقاب بالوحش !..

عودة "حياة"

لم تهنأ نفسي بالرحلة بعد ماعانيت ، الا أن السفينة انتقلت بنا بعد ذلك من مرفأ الى مرفأ .. وصرنا نبيع ونشترى ونربح فيما نبيعه وما نشتريه اضعافا .. ثم عادت بنا الى البصرة .

تعجلت الرجوع الى بغداد ، فلما استرحت من عناء السفر شخصت الى السوق حيث رافقني أحمد الدلال الذي انست اليه منذ سنوات ، وكان وكيلي في البيع والشراء ..

كان السوق اقل بهجة مما ألفت واقل نظافة واكثر ازدحاما ..

كان يتسكع به عدد متزايد من الشحاذين والعاطلين والمتسببين في الرزق بالحمل والمعاونة والنداء على السلع غير العديد من الدراويش والمنجرين والحواة واصحاب المجون والحيل ممن لا مهارة عندهم ..

قال لي احمد الدلال :

ــ اختلفت الاحوال ياعبد الله .. فمع أن سلع الترف صارت اكثر رواجا واغلى ثمنا حيث اشتد عليها الطلب .. فان الريف يزداد فقرا ، والبدو يتزاحمون في المدينة بعد أن قل الزرع وعز الرى ..

قاطعته بقولى :
ـ مر ولم يسلم !
قال : من ؟
فتوقفت واشرت الى تاجر الحرير الذى مر بنا لتوه ،
فنظر الى احمد الدلال مليا وقال :
ـ لم يعرفك ياعبد الله ، فكم غيرتك السنون !
في داري تاملت وجهي في المرآة ..
تعسا للسنين ، وسحقا لها !!..
.. قررت يومها أن آمر على بعض الاصدقاء لأسمع الغناء وانعم بالسمر ..
القاني الصديق بالأحضان وأجلسني في صدر السفرة ورأيت أمامي من الطعام والشراب مالذ وطاب ..
وكان المغني ينشد :
« فرغ الدن وراح الاصدقاء .. يافؤادي
« فانشد اللحن باوتار الغراء .. يافؤادي
« فالذي كان بليل ذي صفاء .. يافؤادي
« لن يراه الصبح مرفوع اللواء .. يافؤادي »
فقلت للمغني من مكاني :
ـ اليس عندك ياصاحبي غير هذا اللحن المفجع ؟!
فران الصمت على القاعة .. لم يقطعه غير ضحك صديقي الذي اثار بعض الضحكات .

***

في الصباح احببت ان ازور الصديق الحميم لابي الشيخ مصطفى تاجر السجاد .

كان الرجل قد غلبته الشيخوخة وضعف بصره ، فصار من فرحه بلقائي يتحسس وجهي بيديه ويربت على ظهري بحنان وشوق .. ويقول :

ـ أنت صديقي وحبيب شبابي .. كم تغيرت !

قلت : مضت سنوات ياعم .

قال : وأين كان مقامك ؟

قلت : في البحار العالية .

قال : كل هذه السنين ؟

قلت : نعم .

قال : وهل استقام معك الحظ ؟

قلت : نعم .

قال : وبارك الله لك ؟

قلت : أنا الان اغنى مما كان ابى ..

قال : ماشاء الله ..

قلت : واقل قدرة مما كنت على الاستمتاع بالحياة .

قال الشيخ : مازلت تتذمر ؟!

قلت : نعم . متذمر .

قال : مم تشكو ؟

قلت : سأم على الارض ولهفة على ركوب البحر .. وسأم في البحر ولهفة على العودة للبر .

نظر الى الشيخ وقال :

ـ هل لك زوجة ؟

قلت : لا .

قال : تزوج ياولدى وانجب الاولاد . الزواج يثبتك في الأرض كشجرة .

قلت : عماه . انفقت المال واطلقت الرسل ورصدت

الجوائز لمن يعثر على حبيبة صباى ، ولم أفز بخبر عنها للان ..

رفع الشيخ حاجبيه وهو يقول :

ـ عجبا ! أقول لك تزوج أمرأة ، وانت تريد أن تتزوج صباك !!..

وانا أشد منك عجبا ياشيخ .. فلا اذكر ان قلبى خفق من بعد صباى ، ولا أذكر أنى احببت نفسى أو ايامى الا قبل رواح الصبا وقبل اقبال الحياة !..

***

جلست وحدى فى القاعة أتعشى ..

كان بطبقى الجبن والزيتون وامامى الماء القراح ..

قلت لنفسى : ياعبد الله ، لعل الذى أصابك ليس الا دوار البحر حيث تلبسك كالمرض المزمن ..

واجبت نفسى : انا أغنى الناس .. ومع ذلك فانا افقرهم ، لان لى حاجة . واشعر بالحرمان ..

فما رأيت الا باب القاعة يفتح على مصراعيه .. وتدخل « حياة » ..

بهت حتى وقعت اللقمة من أصابعى ، وقالت :

ـ تتعشى وحدك ؟

قلت : لا أصدق عينى ..

وقمت فتلقيتها بالأحضان .. ثم قعدت جنبى تتاملنى بعينيها الواسعتين .. ثم نظرت حولهـا بالقـاعة وقالت :

ـ هذا هو عبد الله بن عثمان السندباد .. هذه داره وهذا ذوقه المرهف وحبه للترف والجمال .. الا أن

المسكين يتعشى وحده ، ودأره مفارقة في الصمت ..
فتلقيتها ثانية في ذراعي وسالت دموعي على كتفيها .

****

بثت حياة الحركة في بيتي ، فاذا الصخب يعود اليه ، والاصدقاء ..

قررت ان ادعو لحفل لم تر بغداد مثله ، وادعو القاضي ليعقد العقد ..

قالت حياة :

ـ بذرت مالك ياعبد الله في البحث عني ..

قلت : وهل وصل اليك أحد من رسلي ؟

قالت : لا . ولكن المدينة كلها كانت تتحدث عما انفقه السندباد للوصول الى بغيته ، ويصفونني كبنــات الحواديت ..

قلت : لم يلحق بك أحد من رسلي ؟

قالت : لا . بل جئتك بنفسي وجئت اليك بنفسي .

لم يكن البيت يسعنا .. وكنا نستعجل الوقت وننتهب اللذات ونمرح ونتحدث الليل للصباح ..

ولما اجتمع التجار والاصحاب في الحفل الموعود ، وبعد ان عقد القاضي العقد وتتابع المغنون .. وقفت حياة بين العازفين وغنت :

« بدت لي في البستان باسمة الثغر »
مفككة الازرار محلولة الشعر »
وهتفت جوقة العازفين :
« فقلت لها : آه ..
وأنشدت حياة :

« فقلت لها اشكو اليك الهوى .. قالت »
« أراك الى صخر شكوت ولا تدرى »
وهتفت الجوقة : آه ..
وانشدت حياة :
« فقلت لها ان كان قلبك من صخر .. »
« لقد نبع الماء الزلال من الصخر »
وهتفت الجوقة : آه .. آه ..
وكل من حضر حل عمامته أو شق جيبه او نهض واقفا غير مصدق والجميع يهتفون :
آه .. آه .. آه
انما سمعنا الا وباب القاعة يفتح عنوة ويظهر منه الدلال ممزق الثياب ملطخ الوجه بالدم ، وما أن توسط القاعة حتى صاح :

ـ أنتم هنا يا تجار بغداد ، والسوق ينهب !؟

فما رأيت والله الا رجالا يثبون ، ويتخبطون ، ويتسابقون ، ويتعثرون ..

****

ما حلمت ان أرى فى حياتى مشهدا كهذا ..

سوق بغداد العتيد تتناهبه الحرائق ، وذوو الخرق المرقعة على ظهورهم ، والحفاة والمعتوهون وذوو العاهات والصبية ينهبون السلع ، والسيوف والسكاكين والعصى تتقاطع ، وجحافل الناس يهاجمون والجحافل يدافعون ، والحريق يسابق الفريقين ليفوز بنصيب الاسد ، والصياح قد بلغ عنان السماء .. بينما الجواهر تتناثر على التراب والناس تنقض عليها انقضاض الصقور وتتخاطفها تخاطف

الحيوانات للفرائس ، وكل شيء يتنازعه الناس يتمزق .. القماش والسجاد ، بينما تتحطم التحف اللبلور وتمزق الابواب والستور ..

ثم دقت طبول الشرطة ، ودهم السوق فرسانهم بسيوف تبرق في الصعود وفي الهبوط .. لتضيف الى الصورة البشعة رشاش الدماء . والى الصيحات ترقيما من الحشرجات والآهات ، وسقط من كان على ساقيه ، وطار من كان يمشي على قدمين .. فتناثرت اشلاء فوق اشلاء ، ولم تبق بعد المعركة انفاس تتردد .. غير أصوات ادوات النفير تعلن انتصار الشرطة .. وقد سقط الناس وتبددت السلع الثمينة وانتشر الحريق .

***

قالت حياة :

ـ لم تفلس ياعبد الله . مازلت غنيا .. فلماذا ركبك الهم ؟

قلت : لا . لم تذهب ثروتي .

قالت : فكيف ذهب مرحك ؟

قلت اتأمل تجربتي مع الاخطار .

قالت : لم لا تبيعها كما تبيع الجواهر ؟

قلت : ابيعها ؟!

قالت : نعم . التاجر يأتي من البحر بالجوهرة الرائعة فما أن يبيعها في السوق ويقبض الثمن .. حتى ينساها فلا يفكر فيها بعد ذلك ابدا .

قلت : تجربتى اغلى من جواهر التجار ..

فنهضت الى وسط القاعة ووقفت تنادى كالدلالين فى السوق :

ـ هلموا هلموا .. يا أهل بغداد ! سنبيعكم ماهو اغلى من جواهر التجار ، وأثمن من توابل الطعام .. تذكارات السندباد .. من قرأ الحكمة فيها استغنى بالرشد والمعرفة ، وبز أهل الزمان ..

قلت : ماذا تبيعين ؟

قالت وهى تنادى نداء الدلالين :

ـ سن قردة أحبت عبد الله السندباد فى جزيرة القرود ، وظفر الرخ الذى طار به فى السماء .. فص ملح أحرق الزرع وله ملكة فى الهند لا يقتلها غير مقدار الحفنة من الماء .. والعصا التى ساق بها شيطان البحر السندباد ، وسخره للخدمة ، حتى سكر الشيطان فقتل العبد سيده .. عود ورد لا يذبل أبدا ولا تذهب رائحته ولا ينبت الا فى جزيرة العشاق ، حيث تحتضن العذارى بحارة السفن فيموتون عشقا !.. هلموا هلموا .. سيف الطاغية عثمان الذى ولى نفسه قاضيا للقسمة فى جزيرة المغنطيس ، وقتل رفاق سفره ليفوز بكنز الاجيال ، ثم قتل غيلة كما قتل الاخرين اغتيالا .. وجاء لكم عبدالله السندباد بالسيف لكى تتأملوه ، وتتعظون بالحكمة المستقرة فوق حده الصقيل !.. وتفرجوا تفرجوا ، على كيس الشحاذ الذى جمع فيه السندباد ثروات الميتين والمدفونين احياء بمقابر الهند ، وكان قد دفن معهم ، الا

أن دليله للنجاة كان سنجبا لطيفا ، كنا سنأتيكم بفروته لولا انه فر منا وفاز بالنجاة ..

استخفنى ظرفها فصحت :

ـ بستين درهم فضة ، نبدأ المزاد !

قالت : بمائة درهم فضة سنبيع كل شيء ، لا نبيع بأقل منها ، حتى لا تضحك الناس منا جيلا بعد جيل وهم يقرأون سائر الخرافات .

أخزى الله شيطانك يا « حياة » .. أخزى الله شيطانك ..

***

حملت زوجتى أول أبنائى ..

كنت أضع كفى على بطنها فأحس بدفعات الجنين على باب الحياة ، واعجب فأقول :

ـ سيرث ثروتي ، ولكنه لن يرث حكمتى ..

كما ورثت ثروة ابى ولم ارث عنه الحرص والتدبير ..

فتضحك حياة وتقول :

ـ اتمنى الا يرث عنك القلق والخلط والحيرة والطيش وسوء التدبير والقسوة ياعبد الله .. فهذه كلها بعض صفاتك التى تنطوى عليها ماتسميه انت حكمتك ..

نعم والله .. الحق معها .

***

كنت مع أضيافى نسمر بعد العشاء ، وقد تبارى الحاضرون فى استظهار ابيات الشعر التى تتبلور فيها حكمة العرب السابقين .

سمعنا ابياتا لابن أبى سلمى والفرزدق وأبى العتاهية والمتنبى ، وراعنا مافيها من نصاعة فى البيان وعمق فى الفلسفة ..

ثم هتف بى احد الاصدقاء :

ـ وانت ياعبد الله . لقد سافرت وغامرت وتاجرت وخضت المحن ، قل لنا قولا جامعاً مانعا للحكمة التى استخلصتها مما رأيت وسمعت وعاينت .. ماذا تعلمت وتريد ان تعلم غيرك ؟

كنت ثملا .. وقد طاب الى الطعام والشراب ورفقة السمار ، فجهرت بالقول وقد دفعنى الغرور والتيه بالنفس ان أقول :

ـ رفاقى .. لقد طفت بالبحار اقرأ الانسان واقرأ الطبيعة ، رأيت من صنوف القسوة والوحشية والطغيان فى الطبيعة وفى البشر ماله قوة القوانين الثابتة والحتمية النافذة . وهى قوانين للهلاك الطبيعى وللهلاك البشرى وهلاك الحياة ذاتها .. ولكنى رأيت مع ذلك الطبيعة تتجدد ولاتفنى ، ورأيت البشر يتكاثرون لا ينقرضون ..

انا نفسى تعرضت لكل الوان المخاطر والمهالك .. ونجوت ، واحسست بحنان الشجر والماء ورقة الانسان .

كنت اسأل نفسى دائما : كيف نجوت ياعبد الله ؟

كيف ينجو الناس وتنجو الطبيعة كل يوم تحت الحصار والمداهمة المستمرة لقوانين الهلاك ؟

وعلمت ان البشر كالطبيعة ينطوى على قوة للحياة .. وان الطبيعة وان الطبع لهما قوة للنجاة ، وقوانين للنجاة .

ان قوانين النجاة اقوى من قوانين الهلاك ..
اذا كان الغرق قانون طبيعي نافذ ، فالطفو أيضا من قوانين الطبيعة النافذة .
اذا كان الجشع والظلم والبطش طباع بشرية غالبة ، فالمقاومة والدفاع والتضامن وحب العدل طباع بشرية أغلب منها .
وأن الفضيلة والرذيلة مقاستان بهاتيك القوانين بكل بساطة : كل مايهلك الانسان والزرع خطيئة .. والفضيلة هي مايحيي الزرع والانسان !..
صفق الحاضرون لي طربا .. وتمايلوا من السكر ، وهتف أحدهم :
ـ لله درك ياعبد الله ، اتيت بما لم يأت به الاوائل من الشعراء ، ففنتا صوتا من اصوات حكمتك ..
فضربت أوتار عودي بقوة ، وفكرت في ولدي الذي انتظر ولادته فوق ..
وصحت بأعلى صوتي آملا أن يسمعني :
ـ وهبتك ياولدي للقلق والمعرفة .
وهبتك للتجربة والاخطار والنجاة ..
للطبيعة وللأنسان ولعناية الله ..
ثم غنيت له بصوت قوي :
« لا تخف يابن الرياح »
« من أعاصير الرياح »
« لا تخف يابن الحياة »
« من تباريح الحياة »
« لا تخف يابن الطبيعة »
« من تصاريف الطبيعة »

فكل من كان حاضرا صار يصيح : آه .. آه ..
وما افقنا الا باندفاع احدى الخادمات فى مجلسنا وصياحها :
ـ قم ياعبدالله بارك لزوجتك ولولدك الذى أتى الساعة للقياك ..
فهب ضيوفى يرحبون بالمناسبة ، واهدانى كل منهم هدية .. ولكن ولدى كان هديتى الغالية .

الفصل التاسع عشر

الصين

ما الذى دعانى لركوب البحر ؟

سؤال كان يصرخ فى عينى حياة وهى تودعين وطفلى على كتفها ينظر الى بعينين بريئتين .

مرض لم يشفنى الله منه .

لا أجد جوابا غير أنه مرض استحكم بنفسى ولا اشفى منه ..

ملل وضجر واكتئاب ..

لا تسأليني ياحياة . لا يسألنى احد . .

لا المال مطلبى ولا الثروة بغيتى وعندى منها الكثير ، ولكن قلق النفس حملت تجارتى الى البصرة ، وحدثنى جابر عن سفينة تقصد الصين ، ولم اكن قد سافرت اليها من قبل . فسرعان ما اكتريت عليها وكنست فوقها والسفينة تختال فى عرض البحر ..

انتقلنا من مرفأ الى مرفأ ونحن فى أحسن حال ، نبيع ونشترى ونتفرج على عمارة جزر البحر .. حتى صرنا فى بحر الصين الكبير ..

قضينا اياما طويلة بين الماء والسماء تستعجل الوصول ونقطع الساعات الطويلة بالسمر والغناء ورواية القصص . حتى فاجأتنا صيحة القبطان ذات نهار رائق :

ـ يا اهلُ الله . . لقد هاجمتنا الحيتان البيضاء الكبار فخذوا حذركم .

فاطل كل منا من جبهته الى البحر ورأيت على مسافة من السفينة حوتا كبيرا ابيض يقفز فى الهواء ويرتطم بالماء فيرتج البحر كله من حوله حتى تتمايلُ السفينة ويترنح كل من كان على ظهرها او يسقط فيتشبث بأقرب شيء اليه من الخشب او الحبال .

وقد أطل برأسه من الماء حوت آخر كبير اقرب مايكون الى السفينة ، وحدجنا بعينه التى رأيناها قبالتنا وهو يشق الماء بقربنا . .

ثم امتلأ الماء بهم . .

هتف القبطان لبحارته :

ـ ادفعوا قاذفات الرماح . .

وتعالت أصوات البحارة : قاذفات الرماح . قاذفات الرماح .

وقالَ الريس : تشبثوا بالحبال .

وصاحت البحارة : الحبالَ . الحبالَ . .

فتدلت الحبال من الاشرعة وقيدَ كلّ رجل نفسه بطرف من أطرافها . بينما دفع البحارة الآت قذف الرماح وهى أشبه بأقواس النشاب القوية وثبتوها على جانبى السفينة .

ورأيت حوتا يندفع نحو السفينة بقوة . وصاح الريس : الدفة لليسار . ثلاثون درجة . . لليسار .

تجاوبه صيحات البحارة : ثلاثون درجة لليسار . . فارتجت السفينة وهى تنحرف عن مسار الحوت

المهاجم نحو اليسار .. والقبطان يصيح : رماح اليمين .. صوت .. اطلق .

فاندفعت نحو الحوت ثلاثة رماح قوية اخترقت جسمه فتفجر دمه في نافورات ثلاث ، فغاص في البحر يترنح وارتجت السفينة بدفع الماء من حوله فسقط أحد البحارة في الماء وصاح القبطان : الحبال للغريق !

فرمى له البحارة حبلا تشبث به .. ولكن الحوت ادركه وابتلعه على الفور مع طرف الحبل .

ولكن البحارة انشغلوا من جديد بأمر القبطان : رماح اليمين استعد ..

وكان الحوت الكبير المهاجم من يمين السفينة قريبا جدا ..

صاح القبطان : أطلق !

فانغرست في جسده الرماح ولكن السفينة ارتجت بشدة ، فوقع جزء من الشراع العرضي ودفعني في صدري فقذف بي في البحر ، وبلغتني صيحة القبطان حبال للغريق ..

ووجدتني سقطت فوق جسد الحوت تماما ، وبين الرماح المرشوقة في لحمه تتفجر تحتها نوافير الدم ، فأمسكت بالرماح بقوة حتى لا أسقط في الماء فيبتلعني كما ابتلع رفيقي . ولكنه غاص في البحر يتقلب من الألم ، وأنا متشبثة بالرماح ادفعها بغير وعي في جسده . وغمرني الماء حتى أيقنت من الغرق ، ولكن الألم دفع بالحوت الى صفحة البحر من جديد وقفز في الهواء وانا فوقه حتى تخلت أني حاذيت ناظور السفينة ، ثم سقط في الماء يشقه بسرعة تثير الدوار ، وتخيلت ساعتها أنني

كنت قد سمعت الناظور وانا بحذائه يصيح : جزيرة !.
ولعل حب النجاة قد هيأ لى مالم أسمع فى الحقيقة .. ولكن املا راودنى حين تذكرت انى سمعت فى احاديث البحارة ذات يوم ان الحوت اذا جرح وسال دمه عمد الى المياه الضحلة قرب الشاطىء خوفا من هجوم أسماك القرش ..
كنت فى عمق الماء أكتم انفاسى واتشبث بالرماح من حولى وقدماى على ظهر الحوت الذى يشق طريقه بسرعة فاحس كأن تيار الماء يريد أن يقتلعنى من موقفى وانا اقاوم مقاومة المتشنج ..
ثم انا فى الهواء فوق حوت طائر يشق الهواء فى قفزة عالية فيكاد الريح يقتلعنى وانا أملأ صدرى بالهواء واحس دماء الحوت تتدفق حول قدمى ورشاشها يصفع وجهى فأغمض العينين .
فاذا فتحت عينى برهة هالنى ان صفحة الماء مرشوقة بزعانف أسماك القرش تحوم حولنا وتتهيأ للهجوم على الحوت المحتضر وانا فى مركز الهجوم تماما حيث انى اقف فى حمام الدم الذى تقصده هذه الوحوش الكاسرة .
ـ اسرع ايها المنكود .
كل شىء فى كيانى يصرخ بالحوت ويهيب به ان يمرق من بين أعدائه بما تبقى له من قوة .
فى عمق الماء من جديد احسست بهجوم الاسنان البشعة ، تقتطع من الحوت قطعة وترتد على أعقابها بينمايهجم الاخرون .. تحت اقدامى لا اكاد اراهم فى عكار الدم حول المعركة ..

الان في الهواء وقد تعلقت أنياب الوحوش البحرية بالجسد . وسقطت قبل ان يسقط فيرتطم بالارض الضحلة ارتطاما أطير له أنا في الهواء لاسقط على شاطيء بين الارض والماء فيدفعني الخوف بآخر مابقى من قوتي الى الارض الطيبة حيث يشملني الظلام فيلتهــم آلامي المبرحة في غيبة عميقة .

***

لا أعرف كم ساعة او كم يوما قضيت في غشيتي ، ولكني عندما صحوت ونظرت . رأيت الحوت يكاد أن يكون هيكلا عظميا بلا لحم وقد تناثرت أشلاؤه في بحــر من الدماء .

أنا عطشان !

أمامي رمال فوق رمال ، وورائي بحر مالح أحمر من الدماء .

تحاملت على نفسي ومشيت وأنا بين اليقظة والنوم .. احسست بالشمس تميل في الافق ثم أحسست بها في كبد السماء وانا لا أعرف يقظان أم نائم ، ولكني أحس بأني امشي على قدمي في رمال بعدها رمال ..

كنت في وسط قرية مهجورة ، وامامي بئر . تحاملت على نفسي وتعلقت بجداره ، وجدت الدلو لم أجد الحبل وجدت الحبل لم أجد الدلو . ملت بجسدي فوق الجدار اطلب الماء بيدين ممدودتين فلا ارى امامي غير ظــلام لا آخر له .. فأنادي :

ــ أدركوني يا أهل الله !

اسقط على ظهري فتبهرني الشمس ، أظلل عيني

وانظر حولى فاذا أنا فى رمال بعدها رمال . لا بئر ولا قرية ولا بشر فاغرق فى الظلام .

احس وانا فى الظلام أن شيئا ألقى على جسدى . اتمنى الا أكون قد قدمت والناس تهيل على التراب . اريد ان اتحرك ليعلموا أنى حى .. فلا استطيع .

برد يلفح وجهى .. وشاش ربما . اغيثــونى مــن الظلام ..

***

اشم رائحة حساء . افتح عينى . كل شىء غائم من حولى ولكنى احس بشىء جامد بين اسنانى وسخونة حول فمى ..

أطفال فى البحر يرش بعضهم بعضا بالماء . ثم صيحة غريق !

الاطفال يهرولون نحو الشاطىء ، وأنا انظر اليهم بخوف وقير فهم وجسمى يطفو على سطح البحر واريد ان اصيح لست غريقا بعد فادركونى . ولكن لاصوت لى .

هجوم اللصوص على القافلة . اشتباك بالسلاح . اللص ذو الوجه المندوب يدق القلاع براسى وله وخز الابرة فى أذنى ..

اريد ان انتفض من الالم فاحس بيد تدفعنى وابرة فى اذنى تغوص .. اريد ان آفتح عينى ولكنى لا ارى الا وسادة عليها ابر طوال .. ونار تلفحنى من كل جانب .

***

افتح عينى . لا اذكر من انا . لا اعرف اين انا . فوقى

كوخ وحولى أشياء . اريد ان اتحرك فأجد نفسى اتقلب على فرآش ..
وجه يطل على من فوق ، عليه ابتسامة وعينين عجوزتين صافيتين . اهمس :
ـ من انت .
فيقول : سنياهامى . سنياهامى ..
ـ لا افهم ماتقول ولن تعرف ما اقول . حياك الله يامنقذى ..
ـ سنياهامى . سنياهامى .
ـ اى لغة أنقى استغاثنى وقيامك بالنجدة .. لقد تفاهمنا والحمد لله ..
اريد أن انام ..
استيقظ من سخونة لفحت وجهى . الشيخ يقدم لى الحساء .. آشرب وانام .
اصحو على لغط وهمهمات فأجد نفسى اتأرجح على سرير يحمله اربعة رجال . الطيور فى السماء . منقذى يضع جنبى قربة ماء وبعض فواكه . الرجال يمضون بى وهو يبتسم وجمهرة من الناس تنظر من حولى ..
ـ بارك الله فيك .
الطريق طويل ، نمت معظمه وصحوت أقله .. السرير يتارجح دائما . الرجال يهمهمون بأغنية رقيقة . احدهم يطل على من فوق ويجس جبينى بيده .
أطل برأسى .. ناس كثيرون يطلون على برءوسهم . السرير قد تم وضعه على حوامل ثابتة فى الارض . حولى اكواخ وناس كثيرون .. وكل من أطل على يقول :
ـ ميناهايا ..

ويمضى الى سبيله ..
الى ان اطل على شيخ عجوز وقال :
ـ انت عربى ايها الغريب .
فكدت اقفز فى الهواء من الطرب ..
ـ نعم عربى ياعم . ملاح عربى .. أين انا ؟
فوضع الشيخ يده على صدرى واعادنى الى فراشى برفق :
ـ لا باس عليك ومرحبا بك .. أنت ضيفى فلا تقلق .. انت فى الصين .
يارحمة السماء .. ظللى بجناحيك الناس اجمعين ..
صاح الشيخ بالرجال الذين حملوا سريرى الى داره ونقلونى الى فراشه وانصرفوا ضاحكين متفكهين يقولون:
سيهاهى .. أنتوماسيهىياها ..
خرج العجوز وغاب برهة ثم عاد يدفع فتاة صغيرة جميلة وهو يقول :
ـ انظرى يابنتى كم هو ضعيف ويحتاج الى رعايتك .
ونظرت البنت بعينين يلمع فيهما الحنان :
ـ لا تقلق يا ابى .. سيشفى باذن الله .

الفصل العشرون :

زواج اكتمال القمر

قال لي الشيخ :
ــ الميناء القريب من هنا ياولدى هو شين جى جيك تأتى السفن من العراق وعمان .
فقلت : هل ستأذن لي ؟
قال الشيخ : وهل مللتنا بهذه السرعة ؟ .
قلت : لا والله ..
وقالت البنت : حتى تشفى تماما .

***

كانت البنت ترعانى كأب أو كزوج ..
وكانت تمشى معى فى الحقول بقدر طاقتى وتجمع الزهور لى وتحادثنى فى كل شىء .
أقول لها : لا أعرف كيف أشكرك ..
فتقول : لا تقل لى هذا أبدا .
ــ لا ينكر الفضل الا لئيم .
ــ مازلت ضعيفا وتحتاج الكثير .
ــ لست ضعيفا ..
ــ ان جادلتنى سأتحداك .
ــ هيا تحدينى .. فلنتسابق .
وجرينا فى الحقول كطفلين .. ولكن قلبى خذلنى

فقعدت وانا الهث واقول :
ـ لقد نسيت ، ولكن قلبى ذكرنى ..
ـ اى شيء نسيته وذكرك به قلبك ؟
ـ نسيت انى درت حول الخمســـين ، فرحم الله الشباب ..
قالت : وكيف قضيت شبابك ؟
قلت : اتعلم .
كنا ذلك المساء قد فرغنا من العشاء ونحتسى الشاى فقالت البنت فجأة :
ـ وماذا تعلمت ؟
وملأت ناظرى بجمال وجهها الصغير البريء ومسحة السؤال الصريح يضفى عليها براءة وحلاوة مع الفضول
قلت : مع انى اجيب هذا السؤال طول عمرى على أوجه مختلفة . فان عندى اجابة جديدة اليوم .. نعم . تعلمت ان الحب أقوى من غريزة الامتلاك . وان ضجرى فى بلادى يرجع ايضا الى انانيتى وطابع الاثرة وحب الذات عندى .. فقد نسيت حبى للحياة فى انقــاض احساسى بفقدان ما أحب ومن أحب وشهوة الاسترجاع التى تنبع من نفس وريد الغضب الذى تنبع منه شهوة الانتقام .. كذلك ضجرت حين استرجعت مافقــدت وهان على مااسترجعته بعد مشقة ونسيت حبى له .. الان اتعلم ان الحب يمكن ان يكون بريئا عن شهوة الامتلاك ، وان الغفران يمكن ان يجبر اصدآع القلب فيحيا الانسان مع من يحب حياة جديدة تتجاوز بالنسيان ماكان . واذا كان الانسان ينشد السعادة فانه هو الذى يصنع السعادة ايضا كما يصنع الشقاء لنفسه بنفسه . الان وداعـــا

للشعور بمرارة ما ألم بالنفس فيطلب السعادة واسترجاع ما نحب ، وداعا للضجر فى البيت وفى الوطن ، فـلو أعادني الله هذه المرة سالما الى بلادي فاني اعود الصبى الذى كان ينعم بالحياة وبالحب وصفاء الحياة كما كنت قبل رحلة الالام .. الان عرفت أن اصل الاشياء عندي هو ذلك الصفاء والسماحة والطمأنينة التى عبرت الالام فى طلبها ثم نسيت أنها كانت مطلبى وغايتى وراحة قلبى ..

وقفت البنت أثناء حديثى وقد اضطرب وجهها وجرت الى الخارج كأنها تريد ان تبكى وحدها .

دهشت وسألت اباها :

ـ ماذا بها ؟

قال الشيخ : ايها الرجل الساذج ، تزعم أنك تعرف مكنون نفسك ولا تستطيع ان تقرأ عيون صبية صغيرة مثلها ؟

ـ لا أفهم .

ـ افهم أيها الكهل . البنت تحب .

ـ اتعنى ..

ـ نعم .

ـ أنها ..

ـ نعم .

ـ انا ؟

ـ ولما اظهرت الحنين الى بلدك واهلك غلبها الحزن ..

ـ ولكن ..

ـ اعرف ماتعنى . فارق السن .

ـ ايها العم ..

ـ اسمع ياولدى . انا رجل عجوز لم يبق من عمرى الكثير . وسأترك ابنتي للحياة صغيرة ووحيدة ، واحب ان اهبها لك ليطمئن قلبى . انها ذات خيال وذكاء . خذها معك الى بغداد دار السلام ، ابنة متبناة او زوجة او ماتشاء فانى احب ان تعيش ابنتى من بعدى فى ديار الاسلام .

قلت : بل زوجة ياعم ، فما اريد لها أن تشقى بحبها لى ..

قال : اذا اكتمل القمر فى السماء .. تتزوجان على تقاليدنا باذن الله .

***

اكتمل القمر وقد تهيأت القرية للاحتفال بالزفاف فاجتمعت الفتيات حول العروس يكملون زينتها ثم التام شمل الناس فى ساحة القرية حيث اجتمع الموسيقيون فى جانب يدقون طبولهم وينفخون فى ابواقهم واخذنى الشباب الى ناحية الساحة بينما اخذت الفتيات عروسى الى الناحية الاخرى وبدأ الرقص والغناء على نظامهم .

انتشرت حول الساحة اطباق البخور وكانت له رائحة قوية نفاذة تزيل التوتر وتريح الجسد وتثير الخيال وتحلق بالنفس فى أجواء بديعة بحيث يزداد كل شيء جمالا وعمقا وشفافية .

اقتحم الساحة فجأة مجموعة من الشباب على هيئة الطيور الجارحة يرقصون رقصة عنيفة وهم يصفقون بالاجنحة .

ثم اندفعت العروس وسطهم ترقص على أيقاعهم وكل من اقتربت منه يختطف جزءاً من ملابسها فتندفع صاحباتها الى الحلبة يغطون بالزهور ما تعرى من جسمها ..

داهمني غضب واحسست بالنار تجرى مع دمي في العروق واندفعت بين الراقصين اطلب انتزاع البنت من بينهم فصاروا يصفعونني بأجنحتهم حتى غلبوني على امري ورفعوني فوق الاجنحة وخيل لي انهم قد طاروا بي في الهواء ، فصرخت من السخط ومن الهلع .. وأنا ارقب أقترابنا من قرص القمر واتساع دائرته ، فلما بهرني ضوؤه انطلقت من حلقي صرخة : لا اله الا الله !

فتفرقت الطيور من حولي واخلوا سبيلي لاسقط من حالق وقد ايقنت اني هالك .

ولكني ذهلت حيث وجدتني اهبط على الارض برفق واقف على قدمي .. وتقدم مني طفلان في يد كل منهما قضيبان من الذهب يدق الواحد بالاخر فيصدر رنينا واضحا .

قال احدهما : اذا رأيت التنين فلا تخف ، واضربه بقضيب الذهب حتي يموت ، وعندئذ ستجد زوجتك .

وسلمني القضيبين في يدي ودفعني الى وسط الساحة حيث طلع علي تنين احمر عملاق ، يتطاير الشرر من عينيه ويزمجر في غضب .. فمن فزعي هجمت عليه مثلما هجم علي وضربته على راسه بالقضيبين فراغ مني ودار حول نفسه ثم عاد يهاجمني ابشع مما كان .. فما ان اقترب راسه المروع مني حتي عاجلته بضربتين فصرخ

صرخة عالية وانقلب على جنبه فاندفع نحوه الشباب يصيحون ويضربونه ، بينما تبدت لى عروسى من فوق زحامهم تقترب نحوى ، فى كوكبة من ألنبات وقد اكتست تماما بالزهور والاطفال حول الساحة فى يدى كل منهم قضيبان من الذهب يدق الواحد فوق الاخر على ايقاع الموسيقى العالية .

ولكن الذى سلبنى كل رشد انى رأيت القمر يكبر حجمه ويقترب من الساحة ويسطع ضوؤه بينما دخان المباخر يتكاثف والناس تقترب من حولى وعروسى تطمئن على صدرى ..

***

عشت فى هناء مع زوجتى ، لا يقلقنى غير ما يصيب اباها من ضعف ووهن ، وما يصيب ابنته من قلق وخوف .

قال لى أبوها وهو على فراش المرض :

ـ اذا قضيت ، فهل عندك من المروءة أن ترعى ابنتى من بعدى .

قلت : عماه . لقد رعتني ورعيتنى فى ضعفى واحتضارى فهل تظننى أنسى ؟

فاغمض عينيه وهو يذكر اسم الله .

لم يلبث ابوها ان مات ، فاخذت ابيع املاكه حسب وصيته واتجهز للسفر مع ابنته الى بلادى .

اشتريت بالمال متجرا وسافرنا الى شن جاى واكترينا على سفينة عربية متجهة الى البصرة .

كانت زوجتى فى احسن حال لتلهف على رؤية بغداد

وقد زايلها الحزن وتطلعت الى حياة جديدة .
الا أن دوار البحر غلبها على أمرها بعد ايام فمرضت واخلدت اعني بها انا والقبطان ومساعدوه ، واحكي لها عن غرائب البحر وعجائب بغداد ..
ولكن عجبي صار يزداد من ازدياد ضعفها . وخيل لي أن فتاتي الجميلة الطيبة تزداد شفافية ورقة اليوم بعد اليوم .
كانت تذبل امامي دون ان تتوجع .
وفي ليلة قالت لي : القمر مكتمل الليلة .
قلت : كيف تعرفين وانت في باطن السفينة .
قالت : احصي الوقت .
قلت : هو مكتمل كما تقولين .
قالت : خذني الى ظهر السفينة لاريك شيئا .
فحملتها الى ظهر السفينة وارقدتها على فراش مرتجل فاشارت بيدها الى القمر وقالت :
ـ اذا تغير شكل القمر بحيث طابق وجهه وجهي فاني قد ذهبت .
فظننت ان تخاريف المرض هي التي أملت على محبوبتي قولها ، ولكني حين نظرت الى وجه القمر رأيت وجهها فيه ، فنظرت اليها فوجدتها قد ماتت ، فلم أصدق عيني وصرخت من روعي صرخة جمعت البحارة والتجار من حولي مشفقين علي .
أنخلع قلبي لموتها وصرت ابكي كطفل فقد امه في الحريق وذهلت عن نفسي وعن رفاق سفري وهم يقيمون طقوس الجنازة كالمتبع في البحر . وسمعت النفير والآذان ورأيت جسد حبيبتي يهوى في البحر .

***

عودة الغائب

ابتلع البحر جسد حبيبتي الصغيرة ..

وغرقت انا في استظهار احزاني وأيامي .

لماذا يسافر المرء ، ولماذا يحب ، ولماذا يعود الغائب وحيدا .

زهدت في البيع والشراء ، ولبثت فوق السفينة لا ابرحها .. واصدقائي من التجار والبحارة يهبطون الى الموانى ويعودون اكثر مرحا واكثر صخبا مما ذهبوا ..

والسفينة تنتقل من جزيرة الى جزيرة فى بحر الصين وتستشرف آفاق البحر الجنوبى وتعود فتدور نحو البصرة .. وبيننا وبين البصرة آلاف الفراسخ ومسافات يزيدها الحنين مسافات .

لم تبرح خيالى صورة حياة وطفلى واربعة عيونهم دامعة تودعنى .. الان ست عيون دامعة لا تعرف لا لماذا كتب علينا السفر فى بلاد الله وبحار الله الواسعة .

واقسى مافى السفر الا يعرف المسافر قصده ووجهته ونهاية رحلته .

***

كنت فى عرض البحر لا اعرف موقعى من الدنيا ..

حين تلقت حياة استدعاء من قاضي البصرة فاخذت ولدي من كفه وسافرت الى هناك .

دخلت حياة بيت القضاء ووقفت بين يديه وفي يدها ولدى تقول :

ـ طلبتني يامولاى القاضي .

فقال القاضي للحاجب : ادع لى الريس فضل الله .

وتفرس القاضي في وجه حياة وقال :

ـ أنت زوجة عبد الله بن عثمان المعروف بالسندباد وساكن حارة الكرخ ببغداد ؟

قالت حياة : نعم يامولاى .

ـ وعندك مايثبت ذلك ؟

ـ هذه شهادة بذلك من قاضي بغداد .

ـ وهل له منك ولد .

ـ هذا ولده عبد الله .

ـ وهل عندك مايثبت انه ولده ؟

ـ هذه شهادة بذلك من والى بغداد صدق عليهـــا القاضي أيضا .

ـ منذ كم من السنين سافر عبد الله .

ـ سافر بعد ولادة الولد بست شهور كاملة .

ـ ولنا وقت ونحن نبحث عنك ونطلبك .

ـ ما ان تلقيت الطلب حتى اتيت .

ـ اعلمي ياسيدتي أن عبد الله بن عثمان مات ، واوصى لك وللولد بماله .. والصبر من الايمان .

وهل يغني المال عن الحبيب ؟!

***

في اليوم التالي حضر الريس أبو الفضل وقدم امام القاضي تجارة السندباد وماله ووصيته وساله القاضي واجابه ، وحكي أن عبد الله سقط من السفينة اثناء هجوم الحيتان الكبار عليها ، فلما نجت السفينة من الهجوم باذن الله أحصى القبطان تجارة السندباد وماله ، وتولى الوكالة عنه في البيع والشراء ، وكانت في متاعه وصية حفظها الى آن يسلمها الى قاضي البصرة مع المال .

اقامت حياة وولدها عبد الله في خان جابر الى ان يتم بيع تجارة السندباد .

بعد العصر ذات يوم جلسا حول النافورة ولحق بهما جابر وقد غلبته الشيخوخة ، وتذكر جابر بهما ماكان من أمره مع السندباد ، فأخذ يروى طرفا من احاديثه معه ، حتى انهمرت دموع الصبي عبد الله ، واخفى عينيه بكفه ..

فقالت حياة :

ـ لا تبكي ياعبد الله . ادع له بالرحمة ولكن لاتبكي ، لم يكن أبوك يحب البكاء ..

***

لم يكن أهل الخان يشغلهم مايجري بالمرفا . وكانت سفينة ترسو برفق جنب الشاطيء والمنادي يهتف : سفينة الصين !

وبعد حين أخذ الحمالون ينزلون احمال الركاب بينما الركاب يهبطون على السقالة الخاصة ويمرون بالشرطي الذي يدون اسماءهم في السجل ويتحقق من هويتهم ،

فلما رأى الرجل سأله :

ـ الاسم ؟

ـ عبد الله بن عثمان السندباد .

فقال الشرطى : اسمك ؟

وقال الرجل : عبد الله بن عثمان السندباد .

فهتف تاجر فى المرفأ :

ـ يا اهل الله .. حى يرزق عاد ، عبد الله بن عثمان السندباد .. أسرعوا الى القاضى وبلغوا أهله فى الخان !

وجرى الناس كل فى اتجاه .

أما أنا ، عبد الله بن عثمان فقد اخذنى الذهول مما رأيت ، وسمعت الاشارة الى الخان والى القاضى ومع اننى لم أفهم تماما المقصود فقد استبد بى القلق واللهفة ونحيت الشرطى بيدى وجريت فى الاتجاه الذى يجرى اليه الناس ، فما وجدتنى الى فى مواجهة الخان وقد سبقنى من سبقنى اليه فانشق الزحام عند الباب عن حياة .. وولدى .. فى وجهيهما استطلاع غير مصدق واضطراب لا يستقر فمددت ذراعى اسبق بهما خطاى ومدا الاذرع يسبقان بها الخطى ، فكانا فى صدرى ، وكنت فى صدرهما ، كانا كولدى الغائبين العائدين وكنت كالولد الغائب العائد اليهما من البحار المجهولة ، فيالتلك اللحظات .

***

فى الطريق الى بغداد حطت القافلة فى موضع ظليل للراحة ، وقعدت بين حبيبتى وولدى نشرب الشراب ..

ونظرت حياة الى مليا وسالتني :

ـ ماذا جنيت من اسفارك الطويلة المضنية ياعبد الله ؟

فقلت : حبكما . حب دياري وبلادي واهلي ..

قالت : اما كان ذلك اقرب اليك قبل السفر ؟

قلت : كان ذلك اقرب الى وكان ابعد عني .. فما اقرب القلب وما اعجب النفس .

قالت : وهل تتمنى الآن لو انك لم تسافر ؟

قلت : ولو اني تمنيت ذلك كما تحبين ، أكنا اليوم فيما نحن فيه من مودة سابقة واجتماع سعيد ؟ تذكرى ياحياة .. قبل سفرى اول مرة اين كنت واين كنت واين كان الحبيب عبد الله ، فلو اني لم اسافر هل كنا سنصبح نحن الثلاثة مانحن الان ؟

***

هذه اوراقي وقصتي كما كتبتها يد الاقدار ، وكما املتها النفس على . وقد انتهت بعون الله بعد سفرتي وعودتي من الصين ولقائي باهلي .

انا الملاح العربي عبد الله بن عثمان المعروف بالسندباد

انتهت

فهـــرس

رقم الايداع : ٥١٩٤/ ١٩٨٧
الترقيم الدولى : ٨ - ٣١٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤
13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئه ١٠٠ قرش

سوريا ٢٧٠٠ ق س لبنان ١٢٠ ليرة الاردن ٦٠٠ فلس الكويت ٦٠٠ فلس العراق ١٦٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات البحرين ١٣٠٠ فلس الدوحة ١٣ ريالا دبى ١٣ درهما ابو ظبى ١٣ درهما مسقط ١٣٠٠ بيسه تونس ١٧٥٠ مليما المغرب ٢٠ درهما غزد والضفه ١ دولار البرازيل ٦٠٠ سنت داكار ١٥٠٠ فرنك ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة جيبوتي ١٥٠ بنيا

السندباد البحرى حكاية من حكايات الف ليلة وليلة المشهورة . ولكن الكاتب الكبير الاستاذ الفريد فرج يعالجها بشكل جديد تماما .. فهى عنده ليست مجرد قصة مغامرات فى البحر ، وإنما قصة حياة كاملة فى البر والبحر . قصة حب وقلق وبحث عن المصير ، فهى بذلك قصة حياة وجدانية للناس فى عصر المغامرات البحرية الكبيرة .

والفريد فرج كاتب ارتبط اسمه باستلهام التراث والقصص الشعبية إلا انه عرف باسلوب خاص فى معالجة الواقع الساخن من خلال استلهام التراث .

وروائية « ايام وليالى السندباد » هى احدث حلقة فى انتاجه المسرحى والروائى اللامع ، واحدث حلقة فى علاقة الكاتب الحميمة مع الف ليلة وليلة .